د. رأفت عبد الحميد

الفكر السياسى الأوروبى فى العصور الوسطى

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب - القاهرة

الفكر السياسى الأوربى فى العصور الوسطى

الفكر السياسى الأوربى
فى
العصور الوسطى

د/ رأفت عبد الحميد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب – جامعة عين شمس

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

رقم التسجيل ٧٤٩٠٧
DL

الكتـــــاب: الفكر السياسى الأوروبى فى العصور الوسطى

المؤلـــــف: د/ رأفت عبد الحميد

رقم الإيـداع: ٢٠٠١/١٧٨٧٧

الترقيم الدولى: ISBN

977 – 303 –398-8

تـاريخ النشـــر : ٢٠٠٢

الناشـــــــر : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

الإدارة

٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦

☎ ٦٣٦٢٥٦٢ – فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨

المكتبـــة :

١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المطابـــع :

مدينة العاشر من رمضان – المنطقة الصناعية (C1)

☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

www. alinkya.com/kebaa

e-mail: qabaa@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حـــرص الأســـتاذ الدكـــتور رأفت عبد الحميد، طيب الله ثراه، فى السنوات الأخيرة من عمره على تجميع أعماله التاريخية المتناثرة Opera Minora ونشرها فـــى مجموعات تاريخية بأسلوب لغوى رصين وحس أدبى رقيق يدفع القارئ إلى الاســـتزادة مـــنها بـــنهم شديد. ومنذ عام تقريباً كنا نتحدث عن ضرورة أن يجمع ســـيادته كل ما كتبه عن تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ويضمنه فى مجلد واحد ليفـــيد مـــنه القـــراء والباحثون على حد سواء؟ وأجابنى مبتسماً ابتسامته المعهودة لرفاقه وأصدقائه، قائلاً أنا فى ذهنى هذا المشروع وسأبدأ فيه إن شاء الله، وسيكون عنوانه "الفكر السياسى الأوروبى فى العصور الوسطى".

ومضـــت الأيام كما أراد لها القدر، ورحل العالم رأفت عبد الحميد عن دنيانا فى الخامس والعشرين من شهر يونيو عام ٢٠٠١، وكاد يرحل معه هذا المشروع التاريخى المهم؛ إلى أن زرت أسرته بعد فترة الحداد !! هناك فى منزله المتواضع وقـــع بصـــرى على مكتبه لأجده يئن من عبء ما يحمله من كتب ومراجع تشير معظـــم عناوينها إلى مشروعه البحثى المرتقب. ونظرت إلى صورة سيادته، لأجد نفسى أقود قارب الذكريات وأمخر عباب سنوات عشر، قضيتها تلميذاً فى محرابه؛ وتـــرتد ابتسامته إلىّ وهو يذكرنى بالمسئولية! لقد كان يذكرنى دائماً بأننى سأحمل العـــبء عـــنه، وســـأكمل مـــا بدأه من أساس لمدرسة متميزة فى تاريخ العصور الوســـطى؛ ولـــم أشـــعر بنفسى إلا وأنا أحدث السيدة الفاضلة حرمه عن مشروع أســـتاذى، وأســـتأذنها فى لم شتات هذا المشروع وإخراجه إلى النور !! وأجابتنى بالدعاء. وها هى بعض أفكار أ. د. رأفت عبد الحميد عن مرحلة مهمة من مراحل تـــاريخ أوروبـــا فى العصور الوسطى، حاولت قدر جهدى، وبحكم معرفتى بمنهج أســـتاذى، أن أقدمهـــا للقـــارئ والباحث فى صورة أقرب ما تكون لتلك التى كان سيقدمها هو بنفسه لقراءه الأعزاء.

والكـتاب الذى بين أيدينا الآن يحاول فيه المؤلف أن يؤكد على أن البابوية كانـت المحرك الرئيسى لدفة الحكام والملوك فى أوروبا فى العصور الوسطى؛ فقد طرقت أبواب فرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها، تارة برفق، وتارة أخرى بقبضة من حديد؛ والأخيرة كانت سمة البابوية فى العصور الوسطى! ولم لا! فالسلطة الروحية التى منحها بطرس الرسول للبابا جعلت منه لا كبيراً للكهنة فحسب، بل سيداً للعالم؛ فمـا كـان يحلـه بطرس فى السماء كان يحله البابا على الأرض؛ وما يربطه فى السـماء كـان يربطه البابا على الأرض. وقد ترجم هذا المفهوم البابوى إلى واقع عملى، عندما كان يشهر سلاح الحرمان فى وجه هذا الإمبراطور أو ذاك.

وإذا كانت العلاقات بين البابا والفرنجة من الميروفنجين أو من الكارولنجيين قـد بلغـت ذروتها الطيبة بحادثة التتويج الشهيرة لشارلمان على أيدى البابا، فإنها على العكس سارت مع أباطرة ألمانيا معظم العصور الوسطى.

ففـى الأيـام الفاصـلة بيـن عامى ٧٩٩ و ٨٠٠، وبالتحديد يوم الخامس والعشـرين مـن ديسمبر عام ٧٩٩، قام البابا، ليو III كنوع من العرفان بالجميل، بتتويج شارلمان، خالعاً عليه لقب إمبراطور الرومان، وهو اللقب الذى كان يحمله الإمـبراطور البيزنطى، القائم فى القسطنطينية، وريثة روما القديمة. فى هذا العام بالذات يمكن القول أن ناقوس الخطر بدأ يدق فى سماء أوروبا، لينذر الإمبراطورية البيزنطـية، التى رفضت الإعتراف بشارلمان إمبراطوراً رومانيا، بخطورة ما أقدم علـيه الـبابا، الـذى كـان يعمـد إلى سحب البساط من تحت قدمى الإمبراطور البيزنطى، حامل اللقب وصاحب الحق التاريخى فيه.

وعلى الرغم من اعتراف الإمبراطور البيزنطى نقفور الأول ٨٠٢ – ٨١١م بعد ذلك بلقب شارلمان، إلاّ أن اعترافه لم يكن ليغير الكثير من فكر وعزم البابوية، الـتى أوحـت للعالم الأوروبى أنها غدت الوصية على هذا اللقب، لتمنحه لم تشاء وتحجبه عمن تشاء أيضاً.

ويـبدو أن فـاه البابوية أفتر عن ابتسامة عريضة، تكشف عن زهوها لهذا النصر، الذى شقيت به أيضاً. فها هى تحاول ترويض ملوك ألمانيا الفتيان، وتبسط

سيادتها الروحية عليهم، لتجعل منهم ظهيراً عسكرياً يقضى لها مآدبها؛ ولهذا لم يتردد البابا فى منح الإمبراطور الألمان فى لقب "إمبراطور الرومان" Rex Romanorum فى عام ٩٦٢م، الذى أفاد منه ملوك ألمانيا أيما إفادة فاقت كل تقديرات البابوية، ليتعكر الصفو بين الأخيرة والإمبراطورية الرومانية المقدسة، ويتحول الود بينهما إلى عداء سافر عرفه التاريخ باسم "الصراع بين البابوية والإمبراطورية". وقد استعرت نار العداء بين ألمانيا والبابوية عندما أدرك الأباطرة الألمان أن أمن ألمانيا وصولجانها يقبع فى إيطاليا، ومن ثم خرجت الجيوش الألمانية مراراً إلى هناك لتبسط السيادة الألمانية عليه، الأمر الذى أصاب البابوية بخيبة أمل، لم تعرف لها مثيلاً، فى علاقتها مع ألمانيا؛ فبدأت البابوية فى استخدام الأسلحة الروحية لصد هذه الجحافل، فكان قرار الحرمان الكنسى خير وسيلة لحماية البابوية من بطش الألمان القادمين صوب الجنوب الإيطالى عازمين على البقاء والاستقرار. وهكذا يأتى الفصل الثالث من الكتاب ليؤكد على الدور السياسى للبابوية فى أوروبا العصور الوسطى.

أما الفصل الثانى من الكتاب فيتعرض المؤلف فيه إلى قضية مهمة للغاية، وهى الدور الذى لعبته البابوية فى قيام الحركة الصليبية؛ والذى يأتى استكمالاً للفكرة التى يطرحها المؤلف فى الفصل الأول عن السمو البابوى فى أوروبا آنذاك.

يكشف المؤلف فى هذا الفصل الممتع النقاب عن وجه جديد من أوجه الدور السياسى للبابوية، وكيف كانت تتلاعب بالملوك والأمراء فى سبيل إتمام أهدافها التى كانت ترمى إلى السيطرة والسيادة، بل وتوكيد سمو سلطانها على كل سلطان.

ويأتى الفصل الرابع فى هذا الكتاب ليكشف النقاب عن نموذج من نماذج الحكم فى أوروبا فى العصور الوسطى، أعنى الأنموذج الألمانى، الذى كان يتأرجح بين الانتخاب والوراثة؛ والذى لم يكن بمنأى عن أيدى البابوية أيضاً.

على هذا النحو مضى مؤلف الكتاب فى رحلة تزيد على ثلاثة قرون من عمر الزمان، محاولاً أن يكشف الحقيقة بحلوها ومرها، وأن يثبت من خلال هذا

الســفر الجلــيل أن البابوية، بوجهها المليح أو القبيح، قد ساهمت إلى حد كبير فى تشكيل الفكر السياسى الأوروبى فى العصور الوسطى.

وفــى الخاتمة لا يسعنى إلا أن أذكر حديث رسول الله (ﷺ) القائل فيه "إذا مــات ابــن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صــالح يدعــو له". ونأمل من الله تعالى أن يصبح هذا السفر الجليل علم تنتفع به الأمة العربية.

وعلى الله قصد السبيل

د. طارق منصور

م. نصر – القاهرة

٢٠٠١/١/٢

الفصل الأول

السمو البابوى بين النظرية والتطبيق

ذات يــوم .. رســم بعض زعماء يهود على وجوههم ابتسامة، ظاهرها فيه المــودة وباطــنها مــن قبلها الغيظ، وقدموا على المسيح يحملون بين أيديهم تحية، وقلوبهم بخبث الأفاعى ملآنة، وسألوه: "يا معلم .. نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بــالحق، ولا تبالى بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس. فقل لنا ماذا تظن؟ أيجوز أن نعطــى الجــزية لقيصــر أم لا؟ لعلــم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجربوننى يا مراءون[1]؟!"

فقــد أدرك المســيح يقينا أن الإجابة بإحدى الكلمتين .. نعم .. أو .. لا، تحقق مأربى اليهود، فإن كانت الأولى، ضيقوا عليه الخناق، واتهموه بالادعاء، وصــاحوا فــى وجهه، كيف تكون ملكنا وتأمرنا بالمذلة لغيرنا؟ فاليهود كانوا يــريدون مسيحا دنيويا، يعيد إليهم مملكة داود وسليمان، أو مسيحا ملكا .. لما جــاءهم مسيح يزين لهم ملكوت السماوات، ويعدهم بالآخرة وعدا حسنا، آذوه وناسه، ونالوا منه ومن دعوته. وإن كانت الثانية، أعنى الإجابة بلا أسلموه بها للرومان، الذين سوف يعدونه محرضا لبنى قومه على عدم دفع الجزية، وتحدى سلطان الحكومة الرومانية.

لذا راح المسيح يتفحص وجوه الحيات وأولاد الأفاعى – كما كان يدعوهم – وقــال: "أرونــى معاملــة الجــزية .. فقدموا له دينارا. فسألهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا: لقيصر. قال: إذن أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله!"[2].

---

(١) متى ٢٢/١٥-٢١

(٢) نفس المصدر والصفحة.

ومـــر على هذا القول ثلاثمائة سنين وينيف، وإذا بالأسقف القرطبى العجوز هوسيوس Hosious يكتب إلى الإمبراطور الرومانـــى قسطنطيوس Constantius (٣٣٧-٣٦١) قـــائلا :"الله وضــــع فى يدك هذه المملكة، وإلينا سلم أمور الكنيسة. مكــتوب : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .. إذن .. ليس من حقنا أن نمارس أمور الدنيا .. وليس من حقك أيها الأمير أن تحرق البخور"!!(٣).

ولمـــا آذنت شمس القرن الرابع بالمغيب، تضمنت رسائل وعظات أمبروز Ambrosius أســـقف ميلانو، عن علاقته بالإمبراطور فالنتينيان Valentinianus نفـــس العـــبارات، وأضـاف : "الجزية لقيصر .. ذلك شئ لا ننكره، والكنيسة لله .. ومن ثم فلا تخضع لقيصر .. الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها"(٤).

Imperator intra ecclesiam, non supra ecclesiam est.

ويشـــد الأسقف الميلانى أوتار دعواه، فتعلو نغمة الخطاب إلى الإمبراطور ثيودوســـيوس Theodosius (٣٧٩-٣٩٥) صـــاحب الفضـــل الأول فـــى جعـــل المســـيحية، العقيدة الرسمية للإمبراطورية الرومانية؛ "أيها الإمبراطور .. عليك أن تصـــغى إلى فى قصرك طائعا، حتى لا تصغى إلى فى الكنيسة كارها .. لست إلا بشرا استولت عليك الضلالة، فامحها .. فالخطيئة لا يمحوها إلا الدموع والتوبة"(٥).

فندع ذلك الآن .. ولنعد أدراجنا ثانية إلى المسيح ...

لقـــد سأل يوما حوارييه .. تروا من أكون أنا عند الناس؟ فأجابوه يقولون : يوحـــنا المعمـــدان، وإيلـــيا، وإرميا .. أو واحد من الأنبياء. فسألهم المسيح "وأنتم؟ فأجـــاب سمعان .. أنت هو المسيح ابن الله الحى! فرد عليه .. طوبى لك يا سمعان بن يونا .. أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى، وأبواب الجحيم لن تقوى

---

(3) HOS. Ep. Ad. Const. (ATHANAS. Hist. Arian 44).

(4) AMB. Ep. Ad Theodosium. 33.

(5) AMB. Sermo contra Auxentium, 36.

علـــيها، وأعطـــيك مفاتـــيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماء، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات"(٦).

وتمضى القرون على أثر القرون، ويجئ عام ١٠٧٦، فإذا بالبابا جريجورى الســـابع Gregory VII (١٠٧٣-١٠٨٥) يصدر ضد الملك الألمانى هنرى الرابع Henry IV (١٠٥٦-١١٠٦) قـــرار الحرمان الكنسى، فى رسالة أشاح فيها بوجهه عـــن الملـــك المحـــروم، ورفعها مباشرة إلى بطرس أمير الرسل، وقال بالحرف الواحد: "بمقتضى السلطة المخولة لك من الله ، بحق الربط والحل فى السماء وعلى الأرض، وباعتـــبارى ممثلا لك .. أجرد هنرى الملك بن هنرى الإمبراطور، من ســـيادته على مملكة الألمان، والأراضى الإيطالية، وأحل رعيته المسيحية من كل إيمـــان الـــولاء التى قدموها، أو سوف يقدمونها له، وأحرم على أى إنسان أن يقوم على خدمته كملك، وبسلطانك أوثقه بوثاق اللعنة، وما ذلك إلا ليعلم الجميع ويوقنوا، أنـــك بطرس، وعلى صخرتك بنى ابن الله الحى كنيسته، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها"(٧).

وفـــى عام ١٢٣٩، استخدم البابا جريجورى التاسع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١) نفـــس العـــبارات، بل إن شئنا الدقة نفس السلطة، وهو يحرم الإمبراطور فـــردريك الـــثانى Frederick II (١٢١٢-١٢٥٠) ولكنه أضاف قوله: "وبمقتضى سلطانى(٨)"، مما زاد القضية بعدا جديدا، سوف نعود إليه فى حينه.

تلك رحلة فى الزمان .. طويلة طويلة .. قطعتها البابوية عبر تسعة قرون، واصـــطرعت فيها على السلطة الزمنية، وتداولت وإياها جولات من النصر، ومن الهـــزيمة جولات، وراحت تستبق والإمبراطورية، تاركة وراءها مهمتها الأساسية، ورســـالتها الروحـــية، حتى أضحت فى القرن الثالث عشر تمثل البعد البؤرى فى

---

(٦) متى ١٣/١٦-٢٠

(7) GREG. VII First dep. and ban. Of Henry IV, Feb.22, 1076

(8) GREG. IX, excommunication of Frederick II, 1239.

السياسة الأوروبية[٩]، متناسية تماما أن المسيح لم يأت ملكا، ولم يكن صاحب نظرية سياسية، وأن ما ورد على لسانه عن حق لله، وحق لقيصر، لا يعدو الموقف فقط الذى قيل فيه، والفريسيون يحاورونه حول الجزية، أو ضريبة الرأس، التى كانت تحمل فى جوهرها المذلة لليهود فى الإمبراطورية الرومانية. وأن ما قاله لبطرس وهو يحاوره، لم يذهب أبعد من معناه الروحى الذى تصوره بطرس وهو يحاوره، لم يذهب أبعد من معناه الروحى الذى تصوره بطرس .. فإذا أضفنا إلى ذلك، أن الجزء الأخير من الحوار، أعنى السلطة المخولة لبطرس من المسيح، بمقتضى إعطائه مفاتيح ملكوت السماوات، لم ترد إلا فى إنجيل متى فقط، دون بقية الأناجيل[١٠] وأن يوحنا لم يضمن إنجيله الرواية بالمرة .. أضاف هذا إلى قضية السمو البابوى علامات استفهام لها دلالاتها الكثيرة!!

والآن .. فلنرتد على آثار البابوية والإمبراطورية قصصا، لنعلم أى الحزبين كان أوسع خطوا، وأوفر على طريق السيادة والسمو قدرا.

فالفكر السياسى الرومانى لم يكن يقبل مطلقا بوجود كيان مستقل عن سلطة الإمبراطور، أو بتعبير آخر دولة داخل الدولة، فالإمبراطور هو الكاهن الأعظم Pontifex Maximus وهو صاحب السلطة المطلقة فى دولته[١١]، والكنيسة تنأى بنفسها عن هذا السلطان، وشعب الكنيسة يجل أسقفه أكثر مما يعظم الحاكم، ويزدرى عبادة الإمبراطور المؤله والربة روما، ويستبدلها بالمسيح والعذراء، ولما كانت العبادة الإمبراطورية تمثل رمز الولاء للدولة والحاكم، كان اضطهاد الأباطرة الرومان للمسيحيين، اضطهادا سياسيا فى جوهره، سواء عندما كان اضطهادا

---

(9) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 208

(١٠) متى ١٦/١٣-٢٠ وقارن مرقس ٨/٢٧-٣٠ ولوقا ٩/١٨-٢٢

(١١) سباين، تطور الفكر السياسى، الجزء الثانى، ص٢٤٠-٢٥٣ وأيضا، تشارلز وورث، الإمبراطورية الرومانية، ص١٨-٢٦ وكذلك، محمد معروف الدواليبى: الوجيز فى الحقوق الرومانية وتاريخها الجزء الأول، ص٢٧١-٢٧٥

محلـــيا، حـــتى منتصف القرن الثالث، أو بعدما أصبح عاما بمقتضى أول مرسوم إمبراطورى، زمن الإمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩-٢٥١) ومن أتوا بعده[١٢].

حـــتى إذا جـــاء قسطنطين Costantinus (٣٠٦-٣٣٧) وأعلن عن سياسته التســـامحية مـــع المسيحية، وبسط للكنيسة راحتيه لتعلو بهما لا عليهما، رفعته هذه مكانا عليا، وجعلته الحوارى الثالث عشر للمسيح[١٣] ولم يكن قسطنطين فى سياسته هـــذه إلا مطبقا للفكر السياسى الرومانى، فيما يتعلق بسلطة الإمبراطور، وإن كان بأسـلوب يخـتلف عمـا أنـتهجه أسـلافه، تشهد بذلك رسالته إلى إسكندر أسقف الإســكندرية وآريوس قسيسها، فى أولى مراحل النزاع العقيدى بين الرجلين حول المســيح[١٤]، وإلى شعب أنطاكية عقب عزل أسقفها يوستاثيوس Eustathius النيقى المـــتحمس، وإلى أساقفة مجمع صور عام ٣٣٥ بعد تلكؤ أثناسيوس Athanasius الأســـقف السكندرى فى الحضور[١٥]. ووجد فى النظرية التى حاك خيوطها مؤرخه ومداحه، يوسابيوس Eusebius أسقف قيسارية فلسطين، وشيخ مؤرخى الكنيسة، ما يـتفق وســيادته؛ إذ أعلـــن الأســـقف القيســـارى ابتهاجه بهذا التزاوج بين الدولة والكنيســـة، وراح يحيط شخص الإمبراطور بهالة سماوية من السلطان، على غرار الهالـــة الـــتى أحاطت الملكيات الثيوقراطية القديمة فى الشرق. ويخاطبه على أنه مخلـــوق مقدس يعلو أحكام البشر. وإذا كان من الصعب أن يظل الإمبراطور حتى الآن .. "الكاهـــن الأعظـــم"[١٦]، وأن يبيـــت مؤلهـــا، فلا ضير أن يصبح "الأسقف الأعلـــى"، وأن يغـــدو إنسانا مقدسا، اختير من الله، ليكون ممثلا له على الأرض.

---

(١٢) رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، الجزء الثانى، ص٣٨-٥٣.

(١٣) وضـــع شيخ مؤرخى الكنيسة يوسابيوس القيسارى كتابا أسماه "حياة قسطنطين" Vita Constantini بعـــد قصـــيدة مـــدح نظمها فى فضائل قسطنطين على الكنيسة بالإضافة إلى الكتاب العاشر من مؤلفه تاريخ الكنيسة Historia Ecclesiastica والتى بسط فيها نظرية التزاوج بين الدولة والكنيسة.

(14) EVSEB., Vita Const., II, 65-72

(15) Ibid, III, 60; IV 42,

(١٦) ظل قسطنطين وخلفاؤه يحملون اللقب الوثنى الكاهن الأعظم حتى إلغاء الإمبراطور جراتيان.

وكما أن الإله واحد، فلابد أن يكون هناك إمبراطور واحد، يصبح له بمرور الزمن السيادة على العالم، وحكما عالميا(١٧).

وهكذا وضع قسطنطين لخلفائه، سنة "القيصرية البابوية" Caesaropapism، وجرى بها لسان ابنه قسطنطيوس فى مواجهة أساقفة مجمع ميلانو عام ٣٥٥، عندما راح النيقيون يحاجون بأنه ليس من حق الإمبراطور أن يتهم أحدا فى غيبته، يعنون بذلك أثناسيوس السكندرى، فقطع قسطنطيوس كل حديث ليعلن فى صراحة: "إرادتى هى القانون"(١٨)، oper ego boulomai outo kanon وثبت دعائمها فى القرن السادس الإمبراطور جوستنيان Iustinianus (٥٢٧-٥٦٥) فى تشريعاته، حيث كانت حكومته تمثل الأنموذج الكلاسيكى للحاكم المسيحى فى مجتمع مسيحى، والذى يرى من واجبه ليس فقط إقرار الإيمان الحق لرعاياه، بل أيضا التشريع والتنظيم الأساسى للكنيسة، وعبر عن ذلك فى إحدى تشريعاته بقوله : "حيث أن الإمبراطورية Imperium والكهانة Sacerdotium تنبعان من مصدر واحد، فليس هناك ما يهم الإمبراطور فى المقام الأول، إلا خيرية الكنيسة وسمعتها"(١٩).

وفى القرن الثامن الميلادى، بلغت "القيصرية البابوية" مداها على يد أباطرة الأسرة الأيزورية؛ فقد جاء فى ديباجة الأكلوجا Ecloga (المختارات) التى صدرت باسم الإمبراطور ليو الثالث Leo III (٧١٧-٧٤١) وابنه قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥) تشبيه المسئوليات الإمبراطورية، بتلك التى تتعلق بالقديس بطرس؛ تشبيه

---

(١٧) هسى : العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد، ص٢٣٠

(18) ATHANAS Hist, Arian 33.

(١٩) Novella VI prae. وقد تمثلت هذه الناحية فى سياسة جوستنيان العقيدية، التى كانت تسير فى ركاب العلم، أعنى الجيش، أى محاولة إظهار نفسه مواليا للمنافزة عند محاربته للفرس فى الشرق، ومناصرا لأصحاب الطبيعتين عند حربه مع الجرمان فى الغرب. ولعل موقفه من البابا فيجيليوس Vigilius (٥٣٨-٥٥٥) يتفق والقيصرية البابوية تماما، إذ قبض سنين، ليقر ما ارتآه جوستيان. راجع :

Jones, Later Roman Empire, I, pp. 296-298

Holmes, The Age of Justinian and Theodora, II, pp. 681-686, 702

المســئوليات الإمبراطورية، بتلك التى تتعلق بالقديس بطرس؛ "حيث أن الله قد عهد إليــنا بحكــم الإمــبراطورية، كما قضت بذلك مشيئته، فقد أمرنا أيضا – كما أمر بطرس – أن نطعم شعبه المؤمن" ثم أفصحت عنها دون مواربة، تلك الرسالة التى بعــث بهــا لــيو الثالث هذا إلى البابا جريجورى الثانى، أثناء العداء السافر بينهما بســبب إعــلان أباطرة القسطنطينية الحرب ضد الإيقونات، ووصف فيها ليو نفسه بأنــه "إمبراطور وقس"[٢٠]. على هذا النحو أمست الكنيسة فى الإمبراطورية، دائرة مــن دوائــرها الحكومــية، وغدا أسقفها موظفا كبيرا لدى الإمبراطور، الذى يعين الأساقفة ويعزلهم، ويدعو إلى عقد المجامع الدينية، وهو وحده المسئول عن الدعوة لعقــد المجــامع المسكونية، بل رفضها[٢١]. وهو الذى يترأس جلسات هذه المجامع المســكونية، حــتى وإن لم يكن قد تلقى المعمودية، شأن قسطنطين فى مجمع نيقية عــام ٣٢٥، ويدير دفة مناقشاتها، ويصدق على قراراتها، ويتدخل فى أمر العقيدة، ويضــيف إلــى قوانين الإيمان فيها، بوازع من نفسه، أو بوحى من غيره، علم من أمر اللاهوت شيئا أو لا يعلم، ومعظمهم لم يكن يعلم!.

وطــوال ألــف ومائــة من السنين، عمر الإمبراطورية الرومانية فى ثيابها البيزنطــية، لم ترفع الكنيسة رأسها معارضة الإمبراطور وإذا كانت قد آنست من نفسها قوة، حينا أو بعض حين، فقد كان لها الإمبراطور بالمرصاد؛ ذلك أن أباطرة

(٢٠) هــذا اللقــب نفسه كان التحية التى يقابل بها الإمبراطور فى المجامع الكنسية، وتثبت مضبطة جلسات مجمــع خلقيدونــية، المجمــع المسكونى الرابع سنة ٤٥١ ذلك، بكلمة Pontifex أو Sacerdos وقد استخدم ليو الثالث هذا اللقب فى رسالته، لكن البابوية رفضت أن تخلعه عليه لحربه ضد الأيقونات.

(٢١) تدلــنا الرسالة التى بعث بها أساقفة مجمع ريمينى Ariminuim المنعقد سنة ٣٥٩، إلى الإمبراطور قســطنطوس، وهــم أســاقفة النيقية، على أن الإمبراطور لم يسمح لهم بالعودة إلى ديارهم رغم انتهاء أعمال المجمع، وذلك ليطوعهم لإرادته وعقيدته الأريوسية. راجع :

ATHANAS., De Syn,. 55.

القسطنطينية لم يفرقوا مطلقا بين ما هو لله وما هو لقيصر، فالإمبراطور كان يعتبر نائب المسيح على الأرض[٢٢].

غــير أن هــذا لم يكن حال الكنيسة فى النصف الغربى من الإمبراطورية، أوبتعبير أدق، ما غدا أوروبا العصور الوسطى، وذلك بعد أن ولاه الأباطرة دبرهم منحرفيــن إلــى الشــرق، وهجــروا روما القديمة على ضفاف التيبر، ليقيموا فى رومــاهم الجديــدة علــى شطآن البسفور، منذ أسس قسطنطين مدينته، التى حملت اسمه، على أطلال المدينة الإغريقية القديمة .. بيزنطة.

وكانــت هــذه الخطــوة ذات أثر بعيد فى قيام عالمين متباعدين تماما، فقد أضــحت القسطنطينية البوتقة التى انصهرت فيها عوامل عدة، فى مقدمتها التراث الــيونانى الرومانى وتراث حضارات الشرق القديم، والمسيحية، لتخلق عالما جديدا عــرف بالعــالم البــيزنطى[٢٣]، بينما اختلط الغرب الإمبراطورى بتراثه اللاتينى، وبالغــزوات الجرمانــية ثم غزوات الشماليين من بعد، طريقا آخر متباعدا به فى فكره وثقافته وحضارته واتجاهه العقيدى، عن العالم البيزنطى.

فبانــتقال العاصمة الإمبراطورية والأباطرة إلى النصف الشرقى، نيقوميديا Nicomedia أولا علــى عهــد دقلديــانوس Diocletianus (٢٨٤-٣٠٥) ثم روما الجديــدة أو القســطنطينية، ابتداء بمؤسسها قسطنطين فى عام ٣٣٠، بهذا الانتقال احــتل الغــرب الرومانى، المرتبة الثانية من اهتمام الأباطرة، بينما حظى الشرق

---

(٢٢) مــن أهــم الأدلــة علــى ذلك الفسيفساء الموجودة من القرن السادس فى كنيسة سان فيتالى فى رافنا Ravenna وهــى تمــثل جوســتنيان فى صورة نائب المسيح، الأوتوقراطور، امتدادا لشخصية ملكى صادق، ملك أورشليم، الملك الكاهن. راجع: أرنولد هاوزر، الفن والمجتمع عبر التاريخ، الجزء الأول. ص١٥٥ ونضــيف إلــى ذلك أن قاعة العرش الإمبراطورى، كان يقوم إلى جوار كرسى العرش عن يســار، كرسى يظل شاغرا باعتباره خاصا بالمسيح، ويحتل الإمبراطور الكرسى الأيمن باعتباره نائبا عن المسيح.

(٢٣) للمــزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع – راجع : التقديم الذى كتبه المؤلف فى ترجمته لكتاب العالم البيزنطى، تأليف ج.م. هسى، ص٢٧-٤٤

بالمكانـــة الأولى لاعتبارات سياسية وعسكرية واقتصادية وبشرية[24]. نتيجة لذلك، خلــت الساحة فى الغرب من شخصية سياسية قوية قادرة على ضبط الأمور هناك، خاصة إبان الفوضى التى منيت بها الإمبراطورية عند أدريانويل Adrianople عام ٣٧٨ علـــى يد قبيلة القوط الغربيين الجرمان. وخلال ثلاثة وعشرين عاما بعد وفاة الإمـــبراطور فالنتينـــيان الأول (٣٧٥)، لم يعرف النصف الغربى الخضوع لحاكم واحـــد إلا خلال تسعة شهور فقط، وعلى فترتين، ما بين ٩ أغسطس ٣٧٨ و ١٩ يناير ٣٧٩ تحت سيادة جراتيان و ٦ سبتمبر ٣٩٤ حتى ٧ يناير ٣٩٥ تحت زعامة ثيودوسيوس Theodosius.

بـــل حتى فى ثلاثينيات القرن الرابع نفسه، عندما أقدم قسطنطين قبيل وفاته علـــى تقســـيم إدارة الحكم فى الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة، مما أعطى الفرصة للكنيســـة، كـــى تســـتأثر بهـــذا الإمبراطور أو ذاك، إلى الحد الذى دفع قنسطانز Constanse عـــاهل الغـــرب (٣٣٧-٣٥٠) إلى أن يهدده أخاه قسطنطيوس، حاكم الشرق، من أجل الأسقف السكندرى أثناسيوس[25].

وفى عام ٣٩٥ تكرر نفس التقسيم لإدارة الحكم فى الإمبراطورية بين ولدى ثيودوســـيوس أركـــاديوس Arcdius وهونوريوس Honorius . ولا شك أن وجود عاهليـــن أو ثلاثـــة عواهـــل علـــى عرش الإمبراطورية، يختلف كثيرا عن وجود شخصية واحدة مقتدرة على العرش.

(٢٤) فـــى الحكومـــة الرباعـــية Tetrachia الـــتى أقامها دقلديانوس، ليتغلب بها على أزمة القرن الثالث الميلادى، والفوضى السياسية فى الإمبراطورية، احتل هو مكانة السيد الأول فى النصف الشرقى، يليه ماكســـيميانوس Maximianus أوغسطس الغرب، ثم جاليريوس Galerius قيصر الشرق فى المرتبة الثالثة، وقسطنطيوس قيصر الغرب فى المرتبة الرابعة. وكان مجئ الشرق فى المرتبة الأولى واضحا لأعيـــن المعاصـــرين، حـــتى أن لاكتانتيوس، البلاغى الأفريقى الشهير آنذاك، كتب يقول بعد أن قبل قســـطنطين ابن قسطنطيوس، نصيحة جاليريوس بالتخلى عن لقب الأوغسطس وقبول لقب القيصر، أنه هـــبط مـــن الدرجـــة الثانية إلى الرابعة. انظر : LACT., De mort pers., 25 كما أن الإمبراطور زينون Zeno أهدى روما وإيطاليا إلى ثيوديريوس ملك القوط الشرقيين، ليبعد أذاه عن القسطنطينية.

(25) SOCRAT, Hist. Eccl., II, 22

وليت الأمر اقتصر على هذا الحد، فقد ابتلى الغرب خلال ثـمانين عـامـا (٣٩٥-٤٧٦) بأباطرة على قدر كبير من ضعف الشخصية، اتفقوا جميعا على شئ واحـد، هو أنهم خلفوا فقط للتاريخ أسماءهم، وارتبطت فى صفحاته ذكراهم بأنهم كـانوا ألعوبـة فى أيدى قادة الجرمان حتى أن ريكيمار Ricimer الجرمانى راح يعيـن خلال ستة عشر عاما (٤٥٦-٤٧٢) أربعة أباطرة، ويقوم على شنق أحدهم! بـل كانـت هـناك سنوات بعينها قبل عام ٤٧٦، حين سقطت روما فى يد أدواكر Odovacar، خلا فيها عرش الغرب من وجود امبراطور[٣٦].

وقد أدرك أباطرة النصف الغربى أنفسهم، أن روما لم تعد العاصمة الساحرة القديمة، مدينة الخلود، ومن ثم انصرفوا عنها إلى ميلانو أو رافنا المدينة المحصنة فـى الشـمال الإيطالى. وأصبحت الأخيرة بالذات مستقرا لهم ومقاما، بينما أمست رومـا عـندهم مديـنة مـن الدرجة الثانية، استباحها القوط الغربيون عام ٤١٠، والونـدال سنة ٤٥٥، والإمبراطور قابع فى قصره فى رافنا، وكان الأمر لا يعنيه فى شئ، مما أتاح الفرصة للبابوية فى روما، أن تساهم بنصيب ما فى التفاوض مع زعماء هذه القبائل الجرمانية للجلاء عن روما، وإن كانت الروايات الأسطورية قد أضفت على هذا الدور الشئ الكثير.

لكـن الشـئ الـذى لا يمكـن انكاره، أن الزحوف الجرمانية التى هطلت على الإمـبراطورية عقـب أدريـانوبل، وراحت الولايات الغربية تساقط فى أيديها، تساقط أوراق الشـجر فى مهب رياح الخريف، كانت قد تحولت إلى المسيحية، لكنها المسيحية الآريوسـية، القائلـة بخلـق المسـيح، عـدا الفـرنجة الذيـن اعتـنقوا الكاثوليكية، والانجلوسكسون الذين ظلوا على وثنيتهم. هؤلاء الجرمان كانوا يحملون قدرا معينا من الاحـترام لـرجال الدين، حتى أن ثيودوريك زعيم القوط الشرقيين وملكهم فى إيطاليا، أرسـل وفـدا إلى الإمبراطور الرومانى فى القسطنطينية، جوستين Justinus (٥١٨-٥٢٧) يطلب إليه أن يرفع يد الاضطهاد عن الآريوسيين فى بلاده، حتى لا يضطر إلى

(36) Strayer & Munro, The Middle Ages, 395-1500, pp. 39-40

معاملـــة الكاثولـــيك فى إيطاليا بالأسلوب نفسه، وكان على رأس هذا الوفد، البابا، زعيم الكنيســـة الكاثوليكـــية فـــى الغرب، بل أن ثيودوريك رفض أكثر من مرة التدخل فى الخلافات الحادثة بين المتنازعين على العرش البطرسى فى روما.

هنا .. لابد لنا من وقفة قصيرة، نتابع بعدها المسير ..

فرغم كل هذه الظروف، إلا أن التحدى الكنسى فى الغرب لسلطان الأباطرة، لم يأت من أساقفة روما، بل من كنائس أخرى، وعلى وجه التحديد قرطبة وميلانو وبواتيـــيه زمـــن أســـاقفتها .. هوسيوس وأمبروز وهيلارى على التوالى؛ ذلك أن الصـــراع طالمـــا فـــى هذه الفترة من حول كرسى القديس بطرس بين المتنافسين، بهـــدف الحصول على لقب خليفة أمير الرسل. على أن السبب الجوهرى يتمثل فى أن كنيسة روما كانت مشغولة تماما قرابة قرن ونصف من الزمان، بقضية خطيرة هـــى إثـــبات علـــو كعبها على بقية الأسقفيات الأخرى، فى الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم .. والقسطنطينية.

وتشـــهد بذلك قوانين المجامع المسكونية الثلاثة فى نيقة ٣٢٥، والقسطنطينية ٣٨١ وخلقيدونية ٤٥١. وتلك كانت الخطوة الأولى فى سبيل الزعامة[٢٧].

هذا إلى أن إيطاليا حظيت فى أخريات القرن الخامس وأوائل السادس (٤٩٣-٥٢٦) بحكومة مركزية قوية، متمثلة فى مملكة القوط الشرقيين، فلما قضت عليها جيوش جوستنيان بعد حرب دامت ثلاثة وعشرين عاما (٥٣٣-٥٥٥) ولم يعد يمثل السلطة الإمبراطورية فى الغرب إلا النائب الإمبراطورى فى رافنا؛ راحت البابوية ترقى درج السمو غير هيابة، يساعدها على ذلك عوامل عدة.

فالصـــراع بين روما والقسطنطينية من أجل زعامة الكنيسة، أكسب البابوية عطـــف الحزب الرومانى فى العاصمة القديمة بصفة خاصة، والغرب بشكل عام؛

---

(٢٧) للوقـــوف علـــى تفاصيل هذا الصراع حول الزعامة الكنسية، راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الخامس (تحت الطبع).

فقــد وجــدت إيطاليا نفسها تهبط إلى المرتبة الثانية، وروما فقدت مكانتها السياسية كعاصمة للإمبراطورية، وأمست مجرد عاصمة ولاية رومانية، بل حتى هذه تخلت عــنها كارهــة لرافنا. ومن ثم راحت تعوض فى الزعامة الكنسية وتحدى سلطان الأباطرة من بعد – خسارتها السياسية.

ووســط الخــراب الاقتصــادى والتفســخ السياســى، الذى أمسى عليه الغرب الإمــبراطورى، بعد سقوطه فى يد الجرمان، لم يجد الناس بين هذا الحطام ملاذا يلتفون حوله إلا الكنيسة، فهى الشئ الوحيد الذى بقى له نظامه فى هذه الفوضى. بل لقد تولت فــى كثــير من الأحيان، عن الدولة عبء إقامة العديد من المشروعات الزراعية، لما توفر لها من الثروة الطائلة التى أغدقت عليها من جانب الأباطرة من قبل.

وبيــنما كانت روما فى القرن الخامس تمثل جزيرة الكاثوليكية وسط محيط الآريوســية فى الغرب، وقد دان بها القوط الشرقيون فى إيطاليا، والقوط الغربيون فــى أسبانيا، والوندال فى أفريقيا، شهد القرن السادس انحسارا لهذا المد وعلو شأن لــروما، عــندما تهــاوت معــاقل الآريوســية هذه، بتحول الفرنجة فى غالة إلى الكاثوليكــية مباشــرة، وتحــول القوط الغربيين لها فى عام ٥٨٩، وسقوط كل من مملكتى الوندال والقوط الشرقيين على يد جوستنيان.

وكــان وجود عناصر آفارية وصقلبية وتركية فى البلقان، كلها على الوثنية، مــيدانا فسيحا ألقت البابوية فيه بكل ثقلها، متحدية سلطان كنيسة القسطنطينية التى تعتــبر هذه المنطقة امتيازا خاصا لها، باعتبارها جزءا من ممتلكات الإمبراطورية وكان هذا يحمل فى طياته أيضا تحديا للسلطة الإمبراطورية فى القسطنطينية.

ونتــيجة لإطــراد العداء بين البابوية والقسطنطينية، كنيسة وحكومة، ولمصالح دنــيوية خاصــة بالــبابوية، متمثلة فى الخوف من الزحف اللومباردى السائر قدما من شــمال إيطالــيا إلى وسطها، مهددا الممتلكات البابوية، وعداء نبلاء روما للبابا، ورغبة الــبابوية فى التخلص من السيادة القانونية لأباطرة القسطنطينية – باعتبار البابا مواطنا

رومانيا[٢٨]، والكنيسة الرومانية باعتبارها واقعة ضمن مناطق سيادة الإمبراطور، نتيجة لهـذا كله أقدم البابا ليو الثالث، فى ليلة عيد الميلاد لعام ٨٠٠، أعنى ٢٥ديسمبر ٧٩٩، على تتويج ملك الفرنجة شارل العظيم .. إمبراطورا فى الغرب!

وكانـت الكنيسـة آنئذ، كما عبرت عن ذلك الوثائق الرسمية الموجودة بين أيدينا، والتى وضعها آباء الكنيسة فى الغرب وزعماؤها، لا تطلب من الإمبراطور أكثر من الوقوف عند سلطانه الدنيوى، دون التدخل فى الشئون الكنسية، حملت ذلك كـتابات هوسـيوس القرطبى، وأمبروز الميلانى – كما أشرنا من قبل – والقديس أوغسـطين[٢٩] والـبابا ليو الأول الكبير (٤٤٠ – ٤٦١)، وإن كان البابا جلازيوس Gelasius I (٤٩٢-٤٩٦) يعـد صـاحب الفضل الأول، فى وضع أسس نظرية السـمو الـبابوى فى مرحلتها الأولى، أى الفصل بين ما لقيصر وما لله؛ فقد كتب يقول : "ميز المسيح بمقدمه بين وظيفة كل من السلطتين، بطبيعة نشاط كل منهما، ومكانتـيهما المتمايزتين .. يعتمد الأباطرة المسيحيون على رجال الدين فى خلاص أرواحهـم، بيـنما يسـتخدم رجال الاكليروس، الامكانيات الإمبراطورية لممارسة أمورهـم الزمنية .. من هنا يجب أن يظل العمل الروحى بعيدا عن الدنيوى، وأن يظـل "رجال الله" بعيدين عن المسائل الدنيوية، وبالمقابل، فإن من ينخرط فى سلك العمل الزمنى، لا يحق له أن يمارس نشاطا روحيا"[٣٠].

ويـزيد جلازيـوس المسـألة وضوحا، وهو يخاطب الإمبراطور البيزنطى انسطاسيوس الأول AnastasiusI (٤٩١-٥١٨) بقوله: "أيها الإمبراطور المعظم- هـناك حقيقـتان هامتان يسير عالمنا هذا بمقتضاهما: السلطة المقدسة للاكليروس،

---

(٢٨) حتى القرن الثامن كان البابوات رعايا الإمبراطور فى القسطنطينية. راجع :
Barry, The Papal Monarchy, P. 5

(٢٩) للمزيد من التفاصيل عن آراء القديس أوغسطس، راجع كتابه "مدينة الله" Civitas Dei وقد نقلها إلى الإنجليزية فى جزءين Marcus Dods وراجع أيضا فى ذلك:
The Political writings of St. Augustine, edited by, H. paolucci.

(٣٠) GELAS. Letter to Anastasius. ويذكـر جلازيـوس أن الأباطـرة حملوا لقب الكاهن الأعظم، ولكن بمجئ المسيح لم يعد الإمبراطور يستخدم هذا اللقب وهذه مغالطة تاريخية راجع حاشية رقم ١٦، ٢٠.

والسلطة الملكية، أكثرهما عبئا وثقلا فى الميزان .. الاكليروس. فرجاله سوف يسألون يوم الدينونة، حتى عن الميزان .. الاكليروس. فرجاله سوف يسألون يوم الدينوية، حتى عن الملوك أنفسهم ولتعلم أيها الابن الرحيم .. أنك رغم علو سلطانك على الناس، فإنك يجب أن تخلى هامتك اجلالا لرجال الدين، وأن تنظر إليهم باعتبارهم وسيلة خلاصك. عندما تقدم على تناول الأسرار المقدسة، ليكن معلوما لديك، أن من واجبك الطاعة للقائمين بها، لا السيادة عليهم.. والرجوع إليهم، لا محاولة اخضاعهم لرغباتك".

ثم يعلنها صراحة بنيابة البابا عن بطرس أمير الرسل وسمو مكانته على الحاكم الزمنى، بقوله: "... ومع أن مكانتك مرموقة أيها الإمبراطور، فإن أحدا لا يمكن أن يعلو بنفسه، بأساليب بشرية، ليقارب تلك المكانة السامية لذلك الذى خاطبة صوت المسيح، وفضله على الآخرين، والكنيسة الموقرة باعتباره مؤسسها.

إن الأمور التى أقرتها الإدارة السماوية، لا يمكن أن تنتهك بعجرفة بنى البشر، ولا يمكن أن تمحى بأية سلطة[٣١].

وعلى نفس الدرب سار البابا جريجورى الأول العظيم (٥٩٠-٦٠٤)، فكتب إلى الإمبراطور البيزنطى موريس (٥٨٢-٦٠٢) يقول: "أجب سيدك أيها الإمبراطور، فالمسيح على لسانى يسألك .. لقد أخذت بيدك وأنت بعد جندى، وجعلت منك قائدا للحرس الإمبراطورى، ثم ارتقيت بك فصنعتك قيصرا، ثم رفعتك مكانا عليا فغدوت إمبراطورا وأتممت عليك نعمتى فرزقتك بنين أباطرة، وأمنتك على رجالى .. عجبا .. أتأتى الآن لتمنع جندك أن يعملوا فى خدمتى؟! بالله كيف ستجيب سيدك إذا جاء فى مجده ليدين الأحياء والأموات؟"[٣٢].

وفى عام ٧٢٩، كتب البابا جريجورى الثانى (٧١٥-٧٣١) إلى الإمبراطور ليو الثالث الأيزورى يقول: "نحن نستمد سلطتنا وسلطاننا من أمير الرسل بطرس،

---

(٣١) نفس المصدر.

(32) GREG. I, Letter to Maurice.

ونحن قادرون – إذا شئنا – أن نصدر حكمنا ضدك .. اصغ إلينا أيها الإمبراطور، فلـتكف عن القيام بأعمال الكهانة ... إن القوانين الكنسية شئ وإدارة الإمبراطورية شئ آخر .. وكما أنه ليس من حق البابا أن يتدخل فى أمور القصر الإمبراطورى، أو يعتدى على الامتيازات الملكية، فليس من حق الإمبراطور بالتالى أن يتدخل فى شـئون الكنيسة .. مكتوب "الدعوة التى دعى فيها كل واحد فليلبث فيها" (اكورنث ٧/٢٠) [٣٣]. غير أن هذه الرسائل إلى الأباطرة البيزنطيين فى القسطنطينية، لم يكن لهـا أدنـى تأثير على سياسة "القيصرية البابوية" التى اتبعوها، ولا على التمثل ب "الملـك الكاهن" ملكى صادق، إلى الحد الذى دفع البابا جلازيوس أن يشير إلى هذه الناحـية فـى رسـالته الـتى عرضنا لجانب منها، بل إن الإمبراطور ليو الثالث الأيزورى أقدم ردا على رسالة جريجورى الثانى، على فصل مناطق جنوب إيطاليا وصـقلية عـن السـيادة الـبابوية، وجعلهمـا تحـت الرعاية الأسقفية لبطريرك القسطنطينية.

والكنيسـة الرومانـية نفسها كانت تدرك حقيقة هذا الأمر، وأنه لا غنى عن السـيادة الإمبراطورية لحماية مركزها فى روما ضد أعدائها من اللومبارد والنبلاء الرومان وبعض العائلات الأرستقراطية فى روما، التى كانت تسعى للحصول على كرسـى القديس بطرس. وليس أدل على ذلك من الرسالة التى بعث بها الأكليروس الـرومانى، إلـى الإمـبراطور فى القرن السابع، حول الموافقة على اختيار البابا، وجـاء فيها : "... من أجل هذا، فإننا معشر أتباعك أيها الإمبراطور، نتوسل إليك بكـل الدموع، أن تتفضل بقبول التماسنا، وتحقيق رغبتنا، بتقليد ... الذى اخترناه، ولمجـد المملكـة نـرجو أن تتعطف بالموافقة. فما أن تقرون ذلك، حتى نبدأ على الفور فى الصلاة من أجل سيدنا الإمبراطور" [٣٤].

---

(33) GREG. II, Letter to Leo III. .

(34) A Letter from the Church at Rome to the Emperor at Constantinople, asking him to Confirm the election of their Bishop .

ولقد ذهب الأباطرة خطوة أبعد من ذلك، عندما فوضوا أرخون رامتا فى القيام بدور الإمبراطور، فى التصديق على اختيار البابا، نظرا لما قد يستغرقه عرض الأمر على الإمبراطور من زمن طويل، وما قد يحدث إبان ذلك فى روما من جانب النبلاء الرومان، المتحفزين للوثوب على العرش البابوى، الذى أمسى نهبا لهم خلال القرن السابع الميلادى. ولدينا رسالة بعث بها الأكليروس الرومانى إلى أرخون رافنا حول هذه المسألة(٣٥).

بهذه الخلفية، وباطراد حدة العداء بين روما والقسطنطينية، والتباعد الواسع بينهما فكرا وثقافة، ومن بعد بقليل فى الناحية العقيدية، والذى بلغ مداه فى الصراع حول مشكلة الأيقونات، ورغبة من البابوية فى التحرر من السلطان السياسى لأباطرة القسطنطينية، وتعويضا عن فقدان المكانة السياسية الموموقة – كما قدمنا – كل هذا دفع البابا ليو الثالث إلى تتويج شارلمان إمبراطورا فى الغرب.

كانت حادثة التتويج هذه نقطة فاصلة على طريق السمو البابوى، فقد اعتبرت من أهم العمد الرئيسية التى بنيت عليها النظرية تطبيقا فيما بعد، بل ومحور الارتكاز فى هذا التطبيق. ورغم أن هذه الحادثة أثارت الكثير من المشكلات فى زمانها بين أباطرة القسطنطينية وملوك الفرنجة، وحيرت فقهاء القانون فى حينها ومن بعد، وحول شرعية ما أقدمت عليه البابوية(٣٦)، إلا أن هذه تمسكت بما قدمته يداها، واعتبرته انتصارا كبيرا لها، ولم تتخل عنه مطلقا، وراحت تؤكده ثانية عام ٩٦٢ عندما أقدم البابا الغر العابث، يوحنا الثانى عشر،

---

(25) A Letter from the Church at Rome to the Exarch at Ravenna asking him to confirm the election of their Bishop. .

(٣٦) ناقش Barraclough هذه القضية باستفاضة فى بحثه الممتع The Mediaevel Empire, Idea and Reality وقد قام الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف بنقله إلى العربية ضمن كتابه "الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى" وقدم له تقديما وافيا .. راجع الكتاب المذكور ص٢٨–٤٤ و١٦٩–١٨٩

على تتويج الملك الألماني أوتو الأول، امبراطورا، بسبب الدوافع نفسها التي حدت بسلفه ليو الثالث إلى تتويج شارلمان، قبل ذلك بمائة واثنتين وستين سنة.

ولا شك أن البابوية كانت تدرك تماما خطورة العمل الذي أقدمت عليه، فمن يملك حق منح التاج، يملك بالتالي حق سحبه. بتعبير آخر، من يملك سلطة اختيار الإمبراطور، يملك سلطة عزله وكان شارلمان نفسه يدرك أبعاد هذا العمل، ولذا فإنه رغم اغتباطه المعتدل بحمل اللقب الإمبراطوري، إلا أنه اغتم للأسلوب الذي جرى به، فقد كان يأمل لو أنه هو الذي وضع التاج بيديه على مفرقه، ولهذا ولأسباب أخرى .. كتب مادحه اينهارد Einhard يقول، لو أن شارل كان يعلم ذلك، لما ذهب إلى كنيسة القديس بطرس!![٣٧].

وإذا كانت البابوية قد وجدت في شارلمان الحماية السياسية ضد أعدائها البيزنطيين واللومبارد ونبلاء الرومان على السواء، فإنها افتقدت فيه الأداة الطبيعية التي كانت تؤلمها عندما خلعت عليه تاج أباطرة الرومان. بل غدا شارلمان القاضي الذي راح يفصل في النزاع بين البابا وخصومه في روما[٣٨] ووقف ليو الثالث في حضرة الإمبراطور ليعلن: "... أنا ليو، أسقف الكنيسة الرومانية المقدسة، والذي لم يقاضني من قبل أحد ولم يقهر إرادتي، أبرئ نفسي في حضرتك، من أجل الله، من كل هذه الاتهامات"[٣٩]. وكتب شارل العظيم إليه، محددا عمل البابا في الواجبات الروحية فقط .. قال: "من واجبنا أن ندفع عن كنيسة المسيح أعداءها، وعليك أيها الأب العظيم أن تقدم لنا يد العون في نضالنا الصادق، بأن ترفع إلى السماء أكف الضراعة، كما كان موسى من قبل يفعل"[٤٠].

وفي عام ٨٩٨، أقر المجمع المنعقد في روما تحت رئاسة البابا يوحنا التاسع (٨٩٨-٩٠٠) عدم شرعية اختيار البابا إلا بحضور الإمبراطور أو ممثله[٤١]، وفي

(37) EINHARD, vita Caroli, III, 28
(38) EINHARD, vita Caroli, III, 28.
(39) LEO III, The oath before Karl the Great.
(40) KARL. MAGN., Letter to Leo III.
(41) JOHN IX, Enactment of a Roman Synod, 898.

عام ٩٦٣، وعن المجمع الذى التأم فى روما عقــده، صـــدرت الوثيقـــة التاليـــة: "... اتـــباعا للسنة التى وضعها البابا مبارك الذكر، الذى أعطى شارل ملك الفرنجة واللومـــبارد، مرتـــبة الـــبطريق، والحق فى اختيار البابا وتعيين الأساقفة، أمنح أنا الأســـقف لـــيو (الثامن) خادم خدام الرب، وكل أكليروس وشعب روما - بمقتضى الســـلطة الرســـولية، أوتو الأول ملك الألمان، وخلفاءه، إلى الأبد، الحق فى اختيار خلـــيفة الـــبابا ورســـمه، وكذا رؤساء الأساقفة والأساقفة. وليس من حق أحد مهما كانت مرتبته الكنسية أو مكانته، أن يمتلك سلطة اختيار أو رسم البابا أو أى أسقف، دون موافقـــة الإمـــبراطور. ويمـــارس الإمـــبراطور ذلك باعتباره ملكا (لإيطاليا) وبطريقا (لروما). وإذا ما تم اختيار أسقف من جانب الأكليروس والجموع، فلن تتم رسامته حتى يوافق الملك على ذلك، ويتسلم منه تقليده"(٤٢).

وقد وردت نفس العبارات فى الوثيقة التى تصور مقدم هنرى الثالث (١٠٣٩ -١٠٥٦) الملك الألمانى وإمبراطور الرومان، فى النصف الأول من القرن الحادى عشر إلى روما، وعزله لثلاثة بابوات، وتعيينه لخمسة متتابعين(٤٣).

وقـــد يـــبدو الأمر على هذا النحو غريبا، ونتيجة مخالفة تماما للمقدمة التى ذكـــرناها، والقائلـــة أن ســـلطة التعيين والعزل أصبحت فى يد البابوية، منذ حادثة شـــارلمان، فكـــيف تصبح المسألة على العكس تماما، حتى منتصف القرن الحادى عشر، إذ أن الذى لا مراء فيه، أنه خلال حكم الأسرتين السكسونية (٩١٨-١٠٢٤) والفرنكونـــية (١٠٢٤-١١٢٥) فـــى ألمانيا، كان اختيار الباب مسألة إمبراطورية بحـــتة، هـــذا باستثناء الفترة التى بدأت بعهد هنرى الرابع منذ عام ١٠٥٦. وبلغت السلطة الزمنية قمة شأنها وعلوها، عندما أقدم هنرى الثالث (١٠٣٩-١٠٥٦) على إجبار ثلاثة من مدعى العرش البطرسى على الاعتزال فى سوترى Sutri وروما،

(42) LEO VIII, Grants the Emperor the right to choose the pope and invest all bishops, 963

(43) HENRY III., The Emperor deposes and Creates Popes, 1048

وتلقـى الـتاج على يد البابا الألمانى، الذى عينه من قبل وهو سويدجار Suidger أسقف بابمبرج Bamberg(٤٤).

الحقـيقة أن البابوية دخلت منذ القرن التاسع، وعلى امتداد قرنين تاليين، فى حالـة من انعدام الوزن، وفقدت مكانتها التى كانت لها من قبل، وابتليت بمرضين خبيثيـن همـا السيمونية، أى بيع الوظائف الكنسية، وزواج رجال الدين، خلافا لما استقر عليه الرأى فى مجمع نيقية سنة٣٢٥ وأصبح منصب البابوية ألعوبة فى أيدى بعـض العائلات الأرستقراطية في روما، وحكرا عليها، ولعبت بعض الشخصيات النسـائية دورا كبيرا فى تعيين عدد من البابوات، واعتلى كرسى بطرس صبية فى سن اللهو والعبث، بل وبيع منصب البابوية فى كثير من الأحيان(٤٥).

وغرقـت الكنيسة الرومانية فى الثراء، نتيجة الهبات التى أغدقت عليها من جانـب ملـوك أوروبا منذ أيام شارلمان، وحرص رجال الدين، وقد تزوجوا الآن وكونـوا لهم عائلات، على توريث أبنائهم مناصبهم، ليرثوا بالتالى ثرواتهم، حتى غدا رجال الأكليروس "أمراء" يشكلون طبقة أرستقراطية ضخمة، تعادل أن لم تكن تفـوق الأمـراء العلمانيين، واشتغلوا بكل الأعمال المدنية والحياة العامة، إلى الحد الـذى وصـف فيه أحد المعاصرين، الإكليروس الألمانى فى القرن العاشر، بقوله: "إذا كانت هناك حقيقة واحدة فى ألمانيا، فهى أنه ليس هناك رجل دين تقى!!" (٤٦).

غـير أن موجـة من الإفاقة بدأت تدب فى أوصالها وهى كارهة! وسرت حركة الإصلاح الداخلى فيها، بتأثير رهبان دير كلونى، الذى ارتبطت به محاولات إخراج الكنيسة من التردى الذى انحدرت إليه.

---

(44) Joachimsen, Investiture Contest, p. 103

(٤٥) للوقوف على المزيد من تفصيلات هذه الفترة راجع:

Barry, The Papal Monarchy, pp. 144-162

(46) Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 360

وكـــان بمقـــدور هؤلاء الرهبان، الذين وصل نفر منهم إلى كرسى القديس بطـــرس، أن يـــنتزعموا الحركة الإصلاحية للقضاء على السيمونية وزواج رجال الديـــن، وذلك عن طريق عقد المجامع الكنسية، وإصدار المراسيم التى تحرم على شعب الكنيسة التعامل مع مثل هؤلاء الأساقفة المرتشين أو المارقين.

ولكن إذا كان من السهل نسبيا نجاح البابوية فى هذا السبيل، باعتباره مسألة داخلية، رغم المقاومة العنيفة التى أبداها عدد ليس بالقليل من الأكليروس المنتفعين بمـــثل هـــذه الأوضـــاع المتردية، وبعض ملوك أوروبا وفى مقدمتهم فيليب الأول Philip I ملـــك فرنســـا (١٠٦٠-١١٠٨)، فـــإن داء عضالا كان قد استشرى فى الكنيســـة، لـــم يكـــن من الميسور أبدا معالجته على هذا النحو، أعنى مشكلة التقليد العلمـــانى، وهـــى قيام العلمانيين من الأمراء والملوك بتعيين رجال الدين. وهنا .. ولأن الأمـــر لا يخـــص الكنيســـة وحدهـــا، كان لابد أن تصطدم البابوية بالسلطة الزمنـــية. ومـــن ثم أضحى التقليد العلمانى يمثل حجر الزاوية فى حركة الإصلاح الكنســـى فـــى العصور الوسطى، أو بتعبير أدق، بصفة مرحلية، حتى القرن الثانى عشـــر. عـــندما كـــان يمـــثل القـــناع الذى غطت به البابوية وجهها، حيث كانت الإمـــبراطورية فى الغرب صاحبة اليد الطولى فى شئون الكنيسة، فلما انتهى الأمر بين الطرفين إلى الاتفاق على حل وسط، تمثل فى اتفاقية وورمز(٤٧) Worms عام ١١٢٢، بيـــن الإمبراطور هنرى الخامس (١١٠٥-١١٢٤) والبابا كالكستس الثانى CalixtusII (١١١٨-١١٢٤)، وآنســـت الكنيســـة مـــن نفســـها قـــوة، ورأت فى الإمـــبراطورية ضعفا(٤٨)، أسقطت قناعها، وكشفت عن وجهها سافرة، وأعلنت أنها صاحبة الحق فى السيادة على العالم دنيا ودينا!!

(٤٧) راجع نص الاتفاقية Concordat of Worms فى :

Historical Documents of the Middle Ages, trans and ed. by Ernest Henderson. PP. 408-409

(٤٨) كـــان ذلـــك واضحا على عهدى لوثر (١١٢٥-١١٣٧) وكونراد الثالث (١١٣٧-١١٥٢) ورغم أن خلفاء كونراد كانوا على قدر كبير من القوة، إلا أن البابوية كانت قد صممت على تحقيق السمو كاملا.

وقـــد يتبادر إلى الذهن، أن الإمبراطورية كانت تتحدى حركة الإصلاح هذه أو تعارضـــها، ومن هنا جاء عداء البابوية لها. لكن الحقيقة أن الإمبراطورية كانت هى الأخرى تبغى الإصلاح الكنسى، وإن كان من وجهة نظر مخالفة، بمعنى أنه لا مانع من أن يتولى أمر البابوية والكنيسة أساقفة مصلحون، شريطة أن يتم اختيارهم عن طريق الأباطرة، ولقد مارس كل من أوتو الأول وحفيده الثالث، وهنرى الثالث هذه الناحية إلى أقصى حد، بهدف الارتقاء بالبابوية من التردى الذى هوت إليه فى القـــرن التاســـع وأنه لمن سخرية الأقدار حقا، أن يكون الأباطرة الألمان هم الذين جعلوا الإصلاح الكنسى حقيقة واقعة، ولكنهم فى النهاية كانوا أكثر الناس خسرانا من برنامج هذا الإصلاح.

كان الإصلاح من وجهة نظر البابوية هو إقرار العدالة فوق رؤوس الخطاة والعدالـــة أو الإصلاح تعنى الطاعة الكاملة للرب، وهذه تتحقق عن طريق الانقياد الـــتام للـــبابا، والخروج عليه يعد ضربا من الشرك، ووثنية(٤٩). لأن البابا ليس فقط مجـــرد خليفة للقديس بطرس، أول البابوات ورأس الكنيسة المسيحية على الأرض، ولكـــنه خليفة بطرس، تلميذ المسيح، باعتباره أداة الرب الذى اختارته السماء، ليقر العدالة فوق رؤوس الخطاة(٥٠).

وأى شـــئ أكـــبر شـــهادة ممـــا تضمنته المراسيم البابوية، التى تنسب إلى جـــريجورى الســـابع، الذى يعد مع إنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦) وبونيفاس الثامن Boniface VII (١٢٩٤-١٣٠٣) أشهر بابوات العصور الوسطى علـــى الإطلاق؛ فقد تضمنت سبعة وعشرين مرسوما، تسمو بالبابوية على عليين، جـــاء فيها، أن الكنيسة الرومانية رفع القواعد منها الله وحده، وأنها لم تقارف البتة الخطـــأ، ولن تخطئ طيلة عمرها الآتى، وأن البابا لا يسأل عما يفعل وهم يسألون،

---

(٤٩) عـــبر جريجورى السابع عن ذلك بقوله قبيل وفاته: "احببت العدل وكرهت الظلم، من أجل ذلك أموت فى المنفى".

Delexi Justiciam et odivi iniquitatem, propterea quod morior in exilio.

(50) Thompson & Johnson, op. cit., p. 378

وأنـــه لا راد لقضـــائه، وأن أى مجمـــع لا يمكـــن أن يحوز الصفة المسكونية ألا برضـــائه، وأن مندوبيه فى أى مجمع عام، مهما صغرت مرتبتهم الكهنوتية، فوق كـــل الأســـاقفة، وبمقدورهم أن يصدروا ضد هؤلاء قرار العزل، وأن من حقه أن يعزل من الأساقفة من يشاء، ويولى من يشاء، دون الحاجة إلى رأى مجمع.

إلـــى هـــنا يـــبدو الأمـــر معقولا ما دام فى دائرة اختصاص الكنيسة، لكن المراســـيم أفصحت عما راحت البابوية تسعى الآن إليه وتدعمه، فتضمنت أن البابا يمكـــن أن يســـمح للأمراء بتقبيل قدمه، ثم ازدادت النغمة علوا فأضافت أنه يمكن للـــبابا عزل الأباطرة، وأن يحل الرعية من يمين الولاء لمن يعصاه وكانت خاتمة المطاف أن من حق البابا وحده استخدام الأشعرة الإمبراطورية(٥١).

هكـــذا جاءت المراسيم البابوية، وكان من الطبيعى نتيجة لذلك أن يغدو حكم العـــالم ثيوقراطـــيا محضا، وأن تبتلع الكنيسة الدولة، وأن تصبح الأرض كلها ولا شـــئ غير "مدينة الله" عند القديس أوغسطين، وقديما تصور شارلمان إمبراطوريته دولـــة ثيوقراطـــية، الإمـــبراطور فيها يمثل الله على الأرض، والكنيسة فيها إحدى دوائر الدولة، شأن أباطرة القسطنطينية.

لقـــد كـــان مفهوم البابوية عن الحكومة العالمية اقطاعيا، الله فيها هو السيد الأعظم للجميع، وهذا الذى يحكم العالم من خلال المسيح، الذى يحكم هو الآخر عن طريق بطرس، الذى يمارس سلطانه بواسطة البابا. أما الأباطرة والملوك والأمراء فليسوا إلا أفصالا تابعين للبابا ويمتلكون أراضيهم إقطاعا منه(٥٢).

تجسدت هذه الأفكار بصورة واضحة فى ذهن البابا جريجورى السابع، الذى كان يصور نفسه – كما تدل على ذلك رسائله إلى الإمبراطور هنرى الرابع، على أنـــه القناة التى من خلالها تنفذ إرادة بطرس أمير الرسل إلى بنى البشر، فكل كلمة تكتـــب أو تقـــال للبابا، فالذى يتلقاها هو بطرس نفسه، وإذا كان البابا يقرأ فقط أو

(51) Dictatus papae.

(52) C. M. H. Vol. V, p. 56. Thompson & Johnsonm, op. cit., p. 379.

يسمع ظاهر الكلمة المكتوبة أو المسموعة، فإن بطرس يطلع على خبئ نوايا كاتبها أو قائلهـا، وكـل ضرر يقع بالبابوية، حتى ولو كان حبيس الفكر، فإنه موجه إلى أمـير الرسل مباشرة، فالبابا هو الناطق بلسان القديس بطرس، ومنه يستمد سلطانه الفـائق بالـربط والحل فى السماء وعلى الأرض. ولقد خاطب جريجورى السابع إكليروسـه فى مجمع عقد سنة ١٠٨٠ بقوله: "ألا فليدرك العالم أجمع، أنه إذا كان بمقدوركـم الـربط والحل فى السماء، فإنكم على الأرض قادرون على أن تعطوا الملـك مـن تشاءون، وتنزعونه ممن تشاؤون، فى الإمبراطوريات والممالك، فى الإمـارات والدوقيات، فى الماركيات والكونتيات، بل إن شئتم فى كل ما يمتلكه بنو البشـر". وكتـب إلـى ملـك المجر عام ١٠٧٤ يقول : "نما إلى علمنا أنكم تلقيتم مملكـتكم كإقطـاع مـن الملك الألمانى، وهذا يعد انتهاكا لحقوق وكرامة القديس بطـرس، ويعد تصرفا لا يليق بملك فإن ما أردت أن تنعم برعاية القديس بطرس، ورضائنا، فعليك أن تصحح على الفور خطيئتك؛ فلعلك تعلم يقينا أنه لا أمل لك فى الخـلاص، ولـن تحظى بعهد طويل على العرش، ما لم تبادر إلى الإعتراف أنك تلقيت صولجان مملكتك من البابا وليس من الملك"(٥٣).

على خيوط هذه النظرية البطرسية(٥٤) باعتبار بطرس أمير الرسل، وصاحب الـربط والحـل فـى السـماء وعلى الأرض، نسجت البابوية خيوط سموها وعلو مكانـتها– فى النواحى الروحية والزمنية سواء. دعمتها بنظرية السيفين، الروحى والزمنى، وتفوق الأول على الثانى، وهى النظرية التى تعود فى جذورها إلى البابا جلازيوس الأول، فى القرن الخامس؛ على النحو الذى أسلفنا من قبل(٥٥).

---

(٥٣) GREG. VII, Letter to Solomon, King of Hungary, 1074 والعديد من رسائل جريجورى السـابع كلهـا تدور حول هذا المعنى، الذى ورد فى رسالته إلى ملك المجر، من ذلك مثلا رسائله إلى فراتسـلاف ودوق بوهيميا Bohemia (١٠٧٣) وسانشو Sancho ملك أرغونه Aragon (١٠٧٤) والأمير الروسى ديمتريوس Demetrius (١٠٧٥).

(٥٤) وللمزيد من التفاصيل عن هذه النظرية، راجع :

Ozment, The Age of Reform, pp. 138-140

(٥٥) راجع قبله وانظر أيضا :

Brackmann, The national state, p. 282

ولم تجد البابوية حرجا في أن تزيف بعض الأمور أيضا، وصولا إلى تدعيم موقفها، وكانت هبة قسطنطين[٥٦] Donatio Constantini التي زيفت في البلاط البابوي حوالي عام ٧٦٠ للميلاد، أوضح الأمثلة على الوسائل التي لجأت إليها البابوية في هذا السبيل[٥٧]. وإن كان البابا جريجوري السابع والكاردينال همبرت Humbert قد رأوا في الهبه شيئا ينتقص من قيمة البابوية، إذ تبين أن الإمبراطور هو الذي وضع على رأس البابا، التاج الإمبراطوري وهذا بالطبع عكس ما كان يراه جريجوري السابع تماما، فبالنسبة له ولخفائه، كانت الأولوية لهبة المسيح نفسه، وأن السيادة البابوية على الملوك والأباطرة، لم تأت من السلطة الإمبراطورية بل من الله وحده. ومع ذلك فقد استمرت النظرية لعدة قرون، ثم راحت في القرن الحادي عشر تتوارى بالحجاب[٥٨].

اعتمادا على هذا كله، راح البابوات يروجون لسلطانهم، ويتصرفون باعتبارهم كهنة وقضاة، ويكتبون إلى الحكام، كما لو كانوا يكتبون إلى من هم أدنى منهم مرتبة، نلمس ذلك من الصيغة المفضلة لدى البابوات، لتهنئة ملك ألماني جديد، فقد كانت تقول: "إن الأمم لتستمد سعادتها الغامرة من امتياز وليها، ولا شئ يسعد الأبوين أكثر من أن يروا حكمة البنين وأمانتهم"[٥٩]. وتوجت كلمات الكاردينال همبرت، راهب اللورين الكلوني، وعضد جريجوري السابع، جبهة نظرية السمو البابوي، حين قال: "مثل البابوية والإمبراطورية كمثل الروح والجسد، كالسماء بالنسبة للأرض".

---

(٥٦) انظر نص الهبة:

Historical Documents of the Middle Ages, pp. 319-329

(٥٧) عن الآراء التي ناقشت زيف الهبة راجع:

Barry, The papal Monarch, p.27.

وأيضا Ullmann The Growth of papal Government, pp. 74-86

وكذلك Ozment, op. Cit., p. 140

(58) Southern, Western Society and the church in the Middle Ages, p. 101.

وأيضا: Bryce. Holy Roman Empire, p. 157

(59) Mundy, Europe in the high Middle Ages, pp. 322-323.

ولم يكن من السهل على ملوك أوروبا عامة، وألمانيا بصفة خاصة، بعد أن حملـــوا لقب "أباطرة الرومان" وارتبطت مصالحهم بإيطاليا والبابوية ارتباطا وثيقا، أن يقـــبلوا بســـهولة هـــذا التعالى. ومن ثم كان ملوك ألمانيا، هم أكثر الحكام تأثرا بنظرية السمو البابوى، وأكثرهم معاناة من ناحية التطبيق.

ولقد قدمنا أن الإمبراطورية كانت هى الأخرى راغبة فى الإصلاح الكنسى، وإن كـــان مـــن وجهـــة نظرها، أى أن يتم اختيار البابوات المصلحين على أيدى الأباطرة. وهنا تكمن نقطة الخلاف الرئيسية من يعين من؟! ومن يعزل صاحبه؟!

وكان لابد أن ينشط فقهاء القانون، المؤيدون للحق الإمبراطورى بصورة لا تقـــل عمـــا ذهب إليه الحزب البابوى. ومن الطريف ان الحزب الإمبراطورى اقام دعـــواه على نفس القواعد - تقريبا - التى بنت عليها البابوية حججها، وفند بعض دعواها، وأضاف إليها أسانيد جوهرية؛ فالفصل بين ما لقيصر وما لله، يعنى سلطة زمنـــية مســـتقلة، لهـــا حقوقها الكاملة على رعايا بما فيهم البابا، باعتباره مواطنا رومانيا. والنظرية البطرسية القائمة على تفويض السماء لبطرس فى الربط والحل على الأرض، لا تتعدى فى مفهوم السلطة الزمنية - المسائل الروحية فقط ونظرية الســـيفين تعطـــى للإمـــبراطور نفـــس الحـــق الـــذى تعطيه للبابا، ويقدم الحزب الإمـــبراطورى دلـــيلا من الكتاب المقدس على ذلك، ويتساءل - الم يقل بولس فى رسالته إلى أهل روما: "لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة، لأنه ليس سلطان إلا من الله، والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله حتى أن من يقاوم السلطان، يقاوم ترتيب الله، والمقـــاومون ســـيأخذون لأنفســـهم ديـــنونة، فإن الحكام ليسوا خوفا للأعمال الصـــالحة بل للشريرة ... لأنه خادم الله للصلاح ... لذلك يلزم أن يخضع له ليس بســـبب الغضـــب فقـــط، بـــل أيضا بسبب الضمير، فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضا.. فاعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن لـــه الجبايـــة" (١٣/١-٧) ومن ثم يضع المؤيدون للحق الإمبراطورى فى السيادة علامة استفهام كبيرة. إذا كان هذا قول بولس، فبأى حق تدعى البابوية السيادة؟!.

أمـــا عن "هبة قسطنطين" فبغض النظر عن ثبوت زيفها – كما أشرنا – فإن الواقع والمنطق لم يكن يقرها حتى فى حينها. فالرجل أمضى ثمانـــية عشر عاما (٣٠٦-٣٢٣) يناضـــل من أجل توحيد الإمبراطورية، والفكر السياسى الرومانى لم يكـــن يقـــبل بالتنازل طواعية أو غصبا عن جزء من الإمبراطورية. وحتى عندما ضـــاع النصف الغربى من الإمبراطورية حقيقة على يد الجرمان، ظل الرومان – علـــى الأقل – من الناحية النظرية، يعتبرون الإمبراطورية الواحدة قائمة. وإلا فبم تفسر جهود جوستنيان وحروبه الاستردادية فى القرن السادس، وسياسة الأيزوريين فـــى القرن الثامن، واتجاهات المقدونيين فى القرن العاشر، وطموحات آل كومنين، خاصـــة مـــانويل، فـــى القـــرن الثانى عشر؟ وهؤلاء هم أنصار جمهورية أرنولد البريشى Arnold of Brescia الذين أعلنوا الثورة فى روما فى القرن الثانى عشر، وتحـــدوا ســـلطان البابا، مما دفعه إلى الاستنجاد بالملك الألمانى فردريك بربارosa Frederick Barbarossa (١١٥٢-١١٩٠)، يعلـــنون "هـــذه الأســـطورة الـــزائفة والمضللة، والتى تدعى أن قسطنطين قد أعطى الإمبراطورية إلى سيلفستر، قد ساد زيفها فى روما، حتى ألجم أفواه رجل الشارع، والنسوة، وصفوة المثقفين.

ولم يجرؤ البابا وكرادلته على الظهور فى المدينة خشية الفضيحة"[٦٠]. ورغم أن البابوية قد غضت الطرف عن هذه "الهبة" المزعومة، منذ القرن الحادى عشر، إلا أن كـــتاب الإمـــبراطورية ومؤيديها، راحوا يناقشونها إلى وقت متأخر، بهدف التشـــهير بالـــبابوية، لتزييفها مثل هذه الأسانيد؛ فقد لاحظ أكورسيوس Accursius أحد رجال القانون فى القرن الثالث عشر، إنه إذا كان قد حدث فعلا، فإنه يعد أمرا باطلا، لأن الإمبراطور قد أعطى شيئا لا يملكه. لقد كان حاكما للإمبراطورية، ولم يكن مالكا لها[٦١].

ومـــا لـــنا نذهـــب بعيدا، والملك الألمانى هنرى الرابع يحسم القضية بعبارة واضحة جاءت فى رسالة إلى البابا جريجورى السابع، عام ١٠٧٦ يقول فيها: "من

(60) Mundy, op. cit. P.321

(61) Id.

هنرى الملك، ليس عن طريق الاغتصاب، بل برسامة مقدسة بيد الله، إلى هليدبراند الراهب الزائف، وليس البابا .. أخطأت إذ تصورت أن تواضعنا يعد ضعفا، وتجاسرت على مهاجمة السلطة الملكية والإمبراطورية التى تسلمناها من الله .. وهددت بتجريدنا منها، كما لو كنا قد تسلمناها منك، وكما لو كانت الإمبراطورية والمملكة معقودة بإرادتك وليس بإرادة الله .. ألا فلتعلم .. أن الرب يسوع المسيح قد دعانا لحكم الإمبراطورية، لكنه لم يدعك أبدا لتتسلط على الكنيسة"(٦٢).

هذان خصمان اختصموا فى مصدر سلطانهم، والتقوا على طرفى نقيض، وكان لابد أن يبدأ النزال.

فى عام ١٠٥٩ كان هنرى الرابع ملك ألمانيا، يعانى غض العمر وسن القصور، ويقاسى ويلات وصاية فرضها عليه الداهية أنو Anno رئيس أساقفة كولونى Cologne طمعا فى دخل أراضى التاج، بعد أن اختطفه وأكليروسه من بين أحضان أمه الوصية الشرعية. فى هذا العام، وبعد مضى ثلاث سنوات فقط على وفاة هنرى الثالث، الذى مارس – بهدف الإصلاح – مهمة عزل ثلاثة من البابوات وتعيين خمسة آخرين. تم عقد مجمع فى روما تحت رعاية البابا نيقولا الثانى Nicholas II (١٠٥٩–١٠٦١)، كان القرار الرئيسى الذى صدر عنه، هو أن يتم اختيار البابا عن طريق كرادلة روما السبعة، دون تدخل من السلطة العلمانية، ممثلة فى الإمبراطور(٦٣). ويتم تطبيق ذلك فعلا عند اختيار البابا اسكندر الثانى Alexander (١٠٦١–١٠٧٣). وكان هذا يعنى إغفال تعهدات البابوية من قبل فى هذا السبيل، والتى صدرت عن البابا ليو الثالث إلى شارلمان، والبابا ليو الثامن إلى أوتو الأول، والمجمع المنعقد فى روما عام ٨٩٨(٦٤). وكان ذلك أيضا يمثل أول تطبيق عملى لنظرية السمو البابوى، أحرزت به البابوية نقطة فى حلبة

---

(62) HENRY IV, The deposition of Gregory VII, 1076
(63) NICHOLAS II, The papal election decree, 1059

(٦٤) راجع قبله.

الصـــراع الدامى الآتى، وعرفت البابوية كيف تستغل الظروف السياسية المهيأة لها تماما آنذاك.

فعلى الساحة الدولية، كانت الإمبراطورية البيزنطية تعانى أوجاع الانحلال، فى الفترة التى أعقبت وفاة باسيل الثانى Basil II سنة ١٠٢٥ فالسلاجقة يجرحون كـبرياءها فـى آسـيا الصـغرى، والنورمان يوارون التراب جسدها المسجى فى إيطالـيا. والملكية الفرنسية على عرشها ملك هو فيليب الأول، سرى تهتكه مسرى الفضـيحة، يمارس السيمونية علنا، ويستجلب على نفسه بكل الرضى، سخط الناس والـبابويه. وفى إنجلترا، كان جدار آخر ملوك السكسون يريد أن ينقض، فلما أقام وليم النورمانى الفاتح، بديلا، كان عليه حتما مقضيا أن يشغل نفسه ويصرف جهده أيضـا لبناء دولة جديدة. أما ألمانيا، بيت القصيد، فحالها كما علمنا، لا يخفى على أحد، وملكها لا حول له ولا قوة إلا بالاكليروس!!

والبابوية تمكن لنفسها فى الأرض، فتعقد المحالفات السياسية هنا وهناك، بعد أن أصـبحت هى الأخرى ضمن عداد القوى السياسية فى أوروبا، سعيا لأن تعلوها جميعا. فها هى تمد يد الصداقة للكونتيسة ماتيلدا Matilda دوقة تسكانيا Tuscany ، وتوقـع معـاهدة مع زعماء النورمان جنوبى إيطاليا وصقلية، التزم فيها هؤلاء بيميـن الولاء للبابوية باعتبارهم أفصالا إقطاعيين، فغدت الأراضى التى يسيطرون علـيها إقطاعا بابويا[٦٥]. هذه النقطة الأخيرة بالذات، عدت خطوة أوسع من البابوية نحـو السـيادة الزمنـية، وفى الوقت ذاته إهانة بالغة وجهت إلى الملكية الألمانية، وذلـك لأن الـبابوية نقلت إدعاءات الأباطرة الألمان فى جنوبى إيطاليا، باعتبارها جزءا من الإمبراطورية، إلى سادة جدد هم النورمان، وإن كانت حقيقة الأمر تعنى السيادة البابوية نفسها باعتبار البابا الآن (١٠٥٩) قد غدا سيدا إقطاعيا!

(65) R. GUISCARD, The oaths of R. Guiscard to Nicholas II. 1059

بهذه التحالفات السياسية والعسكرية، وبقوة الارتكاز إلى النظرية البطرسية، والحجج والأسانيد التى سقناها، أعلنت البابوية صراحة تحديها للسلطة الزمنية، ممثلة فى ملوك أوروبا، فعقد جريجورى السابع عام ١٠٧٤، ١٠٧٥ عددا من المجامع[٦٦]، أعلن فيها الحرب على السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى، وأرسل مندوبيه ورجاله إلى كل أنحاء أوروبا، ليمارسوا سياسة التطهر الجديدة التى أعلنها جريجورى السابع، أو "الشيطان المقدس" Holy Satan كما وصفه الراهب بطرس الدميانى Peter Damian[٦٧]. وكتب إلى هنرى الرابع، الملك الألمانى، رسالة فى ديسمبر ١٠٧٥، تنبه إلى ضرورة مراعاة ما جاء بقرارات المجامع التى عقدها البابا، خاصة فيما يتعلق بالتقليد العلمانى. والتى قوبلت بعاصفة هوجاء من الاحتجاج، بين الاكليروس الألمانى، الذى كان قد بلغ حدا من الثراء والنفوذ، خشى معه من قرارات الإصلاح البابوية، وهذا ما يفسر لنا وقوف نفر ليس بالقليل من رجال الدين فى ألمانيا إلى جانب السلطة الزمنية ضد البابوية فى أول الأمر. وكان ما أثر غيظ هنرى الرابع فى هذه الرسالة، ما طلبه إليه جريجورى من عزل خمسة من المستشارين كان جريجورى السابع قد أصدر قرارا بحرمانهم من رحمة الكنيسة. ومن الطبيعى أن يرفض الملك الألمانى ما عده تدخلا سافرا من البابا فى الشئون الداخلية لدولته، وتطاولا على حقوق السلطة الزمنية. ولما كان هنرى هو الآخر، يعتمد على وجهة نظر الأباطرة فى السيادة، ويهتدى بخطى أبيه، فقد راح يمارس حقه فى تعيين الأساقفة فى الأسقفيات الشاغرة، على أن ما أثار حنق جريجورى السابع، إقدام هنرى على تقليد أساقفة ثلاثة لأسقفيات ميلانو وفيرمو Ferme وسبوليتو Spolito، والأخيرتان تابعتان مباشرة لسلطان كنيسة روما.

---

(66) Thatcher & McNeal, A source book for Mediaeval History, pp. 134-135.

(٦٧) Thompson & Johnson, op. cit., p. 377. ولمزيد من التفاصيل عن الراهب بطرس الدميانى، انظر: كانتور: التاريخ الوسيط، القسم الثانى، ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم، ص ٤١٩-٤٢٢.

ولما أبلغ مندوبو البابا، الملك، الجانب الشفهي من الرسالة، والذي يعني التهديد بوضع هنري تحت طائلة الحرمان الكنسي، في حالة رفضه الامتثال لمطالب البابا، أقدم هنري بكل الغضب على دعوة الاكليروس الألماني ومستشاريه، إلى عقد مجمع في الرابع والعشرين من يناير سنة ١٠٧٦، في مدينة وورمز Worms، انتهى إلى إصدار قرار بعزل جريجوري السابع من منصبه، وتضمنت ذلك رسالة هنري الرابع إلى البابا، مخاطبا إياه فيها باسمه الرهباني "هليدبراند"، والتي أشرنا إلى طرف منها، وجاء فيها.

".. خبرني .. من من الناس لم تعقد لسانه لدهشة ويتميز من الغيظ، وهو يراك تدعي الانفراد بالسلطة؟! .. إن من يعرف الكتب المقدسة يدرك يقينا مدى جنون هذا الإدعاء وحيث إن كنيسة الله، بسبب فعالك، قد بات يتهددها الخطر من جراء عجرفتك، .. فقد قررنا أن نخرج عن صمتنا الذي التزمناه، وأن نكشف للجميع عن الأسباب التي تجعلك غير أهل للبابوية"(٦٨).

ويمضي هنري الرابع في رسالته مبينا الأسباب التي دفعت المجمع إلى اتخاذ قراره، إلى أن يصل في النهاية إلى قوله: ".. لكل هذا صدر قرار بإدانتك على يد أساقفتنا وبموافقتنا، فلتتنح إذن عن الكرسي الرسولي الذي اغتصبته، لتدع غيرك يعتلي عرش القديس بطرس، فلن يمارس العنف تحت رداء الدين، بل سوف يعلم العقيدة الحقة للقديس بطرس. أنا هنري .. الملك بإرادة الرب أقول لك، ومعي كل أساقفتي: تنح .. تنح .. ولتكن ملعونا على مر الدهور"(٦٩).

وتلقف جريجوري السابع الكرة بدوره، وكتب رسالة وجهها إلى القديس بطرس(٧٠)، أبلغه فيها أنه بناء على السلطة المخولة له منه، فقد حرم هنري الرابع من رحمة الكنيسة، ووضعه تحت قيود اللعنة، وجرده من مملكته في ألمانيا

---

(68) HENRY IV, The deposition of Gregory VII. 1076

(٦٩) نفس المرجع السابق.

(٧٠) جاء في المراسيم البابوية، "إذا ما تم رسم بابا على نحو شرعي، فإنه يغدو دون ريب قديسا .. ببركة القديس بطرس. ومن هذا المنطلق وجه البابا رسالته هذه إلى القديس بطرس انظر Dictatus papae وراجع أيضا Southerm, WesternnSociety, p. 1045

وسيادته على إيطاليا، وأحل رعاياه من إيمان الولاء التى قدموها أو سوف يقدمونها له، وحرم على أى إنسان أن يقوم على خدمته كملك[٧١].

هكـــذا خلـــع كل من الرجلين صاحبه، وبقيت مرحلة التنفيذ، وتساءل الناس ساعتها، من تراه أقوى باعا وأطول ذراعا؟!.

وبـــنظرة فاحصــــة علــــى الساحة الدولية كما عرضنا لها منذ قليل كانت الــبابوية هى الأقوى، لكن العامل الحاسم فى صالحها جاء من داخل ألمانيا نفسها؛ فالــنظام السياسى الألمانى القائم على الملكية الانتخابية[٧٢]، والسمات البارزة لنظام حكـــم إقطـــاعى بمفهـــوم العصور الوسطى، جعل الأمراء الألمان أصحاب الحول والطـــول فــــى شـــئون ألمانيا، ولما كانوا يحملون كل العداء لمليكهم، فقد انتهزوا الفرصــــة وأعلـــنوا عزلـــه، إلى أن يحصل على الغفران. وليس هنا مجال الحديث تفصـــيلا عـــن الصراع بين الملك والأمراء[٧٣]، لكن الذى يعنينا أنه فى سبيل هذا الغفران، سعى هنرى الرابع متجردا من أشعرته الملكية، متوجها تلقاء روما. ولما كـــان الـــبابا قـــد اتخذ سبيله هو الآخر، موليا وجهه شطر ألمانيا، بناء على دعوة الأمـــراء الألمـــان، لـــيقف قاضيا بينهم وبين مليكهم، فإنه قد آوى إلى تسكانيا عند حليفته ماتيلدا، حالة سماعه بنبأ خروج هنرى فى طريقه إلى روما، مخافة أن يكون الملـــك قد أعد كمينا يتصيد به البابا واحتمى البابا بقلعة كانوسا Canossa فى أعلى جـــبال تســـكانيا. وتقطعت أنفاس هنرى، وتصبب عرقه كأنما يصعد السماء، رغم الشـــتاء القـــارص وهو يحاول وزوجته المخلصة، الوصول إلى القلعة وهناك على أبوابهـــا وقـــف ثلاث ليال سويا، يطرق باب رحمة البابا، الذى كان قلبه كحجارة جبال تسكانيا أو أشد قسوة!! حتى إذا سمح له بالدخول، خر الملك على قدمى البابا

---

(٧١) راجع قبله.

(٧٢) راجع فى هذا المجال الفصل الرابع.

(٧٣) للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع : Z. Brook, A hsitory of Europe, pp. 177-202

ســجدا وبكــيا، يغســلها بدمــوع التوبة والندامة! وتعطف خليفة بطرس، وزعيم المسيحية الكاثوليكية، وأعلن أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه، دون ما تأخر! [٧٤].

هكــذا تســنمت البابوية قمة الجبل .. وتدنت الإمبراطورية ..وذهب إذلال كانوســا فــى الــتاريخ مــثلا[٧٥]. وكانت سابقة لم تتدخل عنه البابوية. ولا نسيتها الإمــبراطورية، وراحت البابوية بعدها تدس أنفها وأصابعها كلها فى شئون ألمانيا، بــل وأوروبــا كلها إلى حد بعيد .. وكيف لا وقد جاءتها أوروبا طائعة، تلبى نداء الخروج لحمل الصليب، الذى أذاعه البابا الثانى Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩) مرددة جموعها إنها إرادة الله!!

وأملت البابوية فى هنرى الخامس (١١٠٥-١١٢٥)، الذى سعت لرفعه إلى عرش ألمانيا، خيرا كى يصبح فى يدها أداة طيعة، لكن هنرى الخامس لم يكن أقل مــن أبيه وأسلافه الفرنكونيين والسكسون، حرصا على حقوق السيادة الملكية، فيما يــتعلق بمشكلة التقليد العلمانى، التى دار من حولها الصراع على النحو الذى رأينا، ومــن ثــم دارت المفاوضات بينه وبين البابا باسكال الثانى Paschal II (١٠٩٩-١١١٨)، ولكــنها لــم تؤد إلى نتيجة حاسمة[٧٦]، غير أن هذه المفاوضات استمرت حــتى عهــد البابا كالكستس الثانى Calixtus II (١١١٩-١١٢٤) ليتم الاتفاق بين الطرفيــن فى معاهدة وورمز Worms سنة ١١٢٢[٧٧] والتى بمقتضاها تم التوصل إلــى حــل وسط يرضى الطرفين مؤقتا، وقبل كل منهما اقتسام الرغيف. على أن الحقــيقة الــتى لا يمكن إنكارها، أن البابوية خرجت من هذا الصراع قوية الجانب مــرهوبة الســلطان، وعلــى الرغم من أنه لا يمكن القول إنها قد نجحت تماما فى فــرض بــرنامجها الإصلاحى، فيما يتعلق بالسيمونية وزواج رجال الدين، إلا أنها

---

(٧٤) راجع تفاصيل "إذلال كانوسا" فى : GREG. VII, Letter to the German princes 1077

(٧٥) اتخــذت الأجــيال التالية فى ألمانيا، من حادثة كانوسا رمزا لخضوع الدولة للكنيسة، وأوضح الأمثلة علــى ذلك ما قاله المستشار الألمانى بسمارك فى القرن التاسع عشر، فى معرض نزاعه مع الكنيسة الكاثوليكية، "أننا لن نذهب إلى كانوسا".

(76) PASCHAL. II, The first and second privileges to Henry V, 1111.

(77) Concordat of Worms, 1122.

خطت في ذلك السبيل خطوات بعيدة، على حين نجدها أنها قد أفلحت نسبيا فى التوصل إلى حل لمشكلة التقليد العلمانى. وإذا كانت البابوية لم تستطع أن تحرر الكنيسة من سلطان الدولة، فإنها من ناحية أخرى قد حققت سيادتها على الكنيسة. على أنه لا يزال هناك أمامها طريق طويل وشاق من أجل تحقيق سموها بصورة فعالة، بعد أن أعلنت الآن بكل الإصرار، ادعاءاتها بالسيادة الزمنية(٧٨).

ومن هنا كانت اتفاقية وورمز تمثل نهاية مرحلة وبداية طريق .. مرحلة اصطرعت فيها البابوية والسلطة الزمنية حول مشكلة التقليد العلمانى، وحققت خلالها ليس بالقليل، بعد إذلالها للإمبراطورية فى كانوسا. حتى إذا كانت الاتفاقية، تحول الصراع وجهة أبعد، ليدور حول السيادة العالمية. لمن تكون؟ للبابا أم للإمبراطور؟

ولم يكن ملوك ألمانيا، الأباطرة، هم الآخرون، خاصة على زمن أسرة الهوهنشتاوفن Hihenstaufen ، أقل طموحا إلى هذه السيادة من البابوات، ولم يذهب من مخيلتهم أبدا صورة إذلال كانوسا، ولا غاب عن ذهنهم – رغم ما فى هذا الزعم من مغالطة تاريخية – أنهم خلفاء الأباطرة الرومان، وما ارتبط بهذا الادعاء من مفهوم السيادة العالمية، والسيطرة على البحر المتوسط، البحيرة الرومانية قديما جدا .. وغذى هذا المفهوم لديهم أساتذة وفقهاء فى جامعة بولونيا(٧٩). كانت خطة الأباطرة لتحقيق ذلك محاولة إخضاع القسطنطينية لسيادتهم، والسيادة على إيطاليا وصقلية. وهذه الأخيرة بالذات كانت تعنى العداء لملوك النورمان، وازدياد حمى الصراع مع البابوية، باعتبار البابا السيد الإقطاعى لهذه المنطقة، منذ توقيع معاهدة ١٠٥٩، وتجديدها بعد ذلك فى عام ١١٥٦.

كانت النقطة الجوهرية تدور حول ما قر فى أذهان أباطرة أسرة الهوهنشتاوفن بصفة خاصة، من أنهم الورثة الحقيقيون للقياصرة الرومان، وما وعته – أو بتعبير أدق – ما أرادته البابوية ل "مهمة" الإمبراطور، الذى منحه

(78) Thompson & Johnson, op. cit., p. 390

(79) Tout, The Empire and the Papacy, p. 247

البابا التاج منذ ميلاد القرن التاسع، والتى لا تزيد عن كونه مجرد قائد، عمله الأساسى أن يستل سيفه من غمده ليدفع به عن البابوية(٨٠) غير أن هذا المفهوم كان يتعارض تماما مع ما يراه وما يؤمن به ملوك الهوهنشتاوفن، خاصة فردريك برباروسا، الذى لم تعد الإمبراطورية بالنسبة له، هى الإمبراطورية المسيحية التى ولدت بيدى خليفة القديس بطرس عام ٨٠٠، تدين بالولاء الكامل للكنيسة البطرسية، بل غدت الإمبراطورية فى مفهومه، بكل ما تعنيه الكلمة، هى الإمبراطورية الرومانية، إمبراطورية أوغسطس. من هنا استخدم حقه فى حكم العالم، واستمد أقدميتها من وجودها قبل المسيح. فكيف يمكن إذن أن تكون متوافقة مع البابوية؟! إنها أقدم منها، مستقلة عنها .. الإمبراطورية ليست داخل الكنيسة، بل هذه داخل تلك، والبابا ليس إلا أحد رعايا الإمبراطور.

وهكذا ما كان شيئا غامضا فى خيال أوتو الثالث (٩٨٣-١٠٠٢) أصبح نظرية محددة المعالم فى فكر فردريك برباروسا(٨١). لقد راح يخاطب يوما نبلاء الرومان بقوله : "فلنقلب أذهاننا جيدا فى أعمال أباطرة هذا الزمان، واضعين فى اعتبارنا بكل العناية، ما أقدم عليه أسلافنا المقدسون، شارل وأوتو، اللذان انتزعا مدينتكم والأراضى الإيطالية من يد اليونان (البيزنطيين)، واللومبارد، وجعلوها ضمن حدود المملكة الفرنجية، ليس هبة من يد أجنبى، بل عنوة وكسبا بانتصاراتهما.. أنا إذن الملك الشرعى(٨٢).

بل لقد ذهب الأمر بفردريك أبعد من ذلك، عندما آمن أنه ليس فقط خليفة شارلمان وأوتو، بل قسطنطين وثيودسيوس وجوستنيان. وعندما أصدر قرار تنظيم جامعة بولونيا، أصر على أن يوضع مرسومه ضمن مجموعة قوانين جوستنيان(٨٣). ووجد ضالته فى القانون الرومانى، باعتباره إمبراطورا رومانيا

---

(٨٠) ناقش W. Ullmann هذه الرسالة باستفاضة وبتحليل رائع فى كتاب :

A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 185-188

(81) Pirenne, A history of Europe, p. 275

(82) Barraclough, The origins of Modern Germany, pp. 170-171 n. 1.

(83) Davis, Medieval Europe., p.322; Bryce, op. cit. p. 169

ووجـد فـى الديجسـتا Digesta الإجابـة الفلسفية التى ترد على مراسيم السيادة الـبابوية، فهـى تعطى القانون السيادة الكاملة، وليس للكهانة أو الروح، جاء فيها: "القانون هو الملك لكل شئ – لما هو سماوى ولما هو إنسانى .. إنه يجب أن يكون الضـابط، والحاكم، والقائد للخير والشر" وتاه عجبا بمركزه الإمبراطورى، بعد أن أوحـى إليه رئيس أساقفة ميلانو، أن إرادته هى القانون[٨٤]. بكل هذا لم يكن غريبا أن يوصف فردريك برباروسا بأنه هليدبراند الإمبراطورية[٨٥].

ومـن واقـع إيمانه بأنه الإمبراطور الرومانى حقا، دون أن يلقى بالا لأباطرة الـرومان الشرعيين فى القسطنطينية، كتب إلى الإمبراطـور البيـزنطـى مانـويـل (١١٤٣-١١٨٠) علـى أثـر هزيمة الأخير أمام سلطان قونية السلجوقى عام ١١٧٦، رسـالة تقطـر ازدراء وسـخرية، تتضـمن خضوع ملك اليونان Rex Grecorum للإمبراطور الرومانى، وانتهز الفرصة ليعلن له أنه وريث الأباطرة الرومان، وأن ذلك يتضـمن السـيادة على "المملكة اليونانية"[٨٦] Regnum Greciae ولما جاء مشاركا فى الحملة الصليبية الثالثة، ولم يلقه الإمبراطور البيزنطى قبولا حسنا، بعث إلى ابنه هنرى السادس رسالة يأمره فيها بتجهيز حملة ضخمة جديدة، هدفها القسطنطينية.

أمـا بالنسـبة لإيطالـيا، فقـد اقتضـاه الأمر القدوم إليها فى ست حملات عسـكرية[٨٧]، اسـتنفذت جهود ألمانيا وطاقاتها وخزانتها وأضعفت بصفة رئيسية سـلطة الـتاج فيها أمام ازدياد نفوذ أمراء الإقطاع[٨٨] فى الوقت الذى تلاحقت فيه انتصـارات البابوية واحدا فى أثر الآخر؛ ففى عام ١١٥٥ كان عليه أن يأخذ بعنان فـرس الـبابا حـتى يمنحه هذا قبلة السلام ويعلنه إمبراطورا، ورغم امتعاضه فقد جـرت المراسـيم بذلـك باعتباره مسألة تقليدية[٨٩]. وفى عام ١١٥٦ وجهت إليه

(84) Davis, op. cit., p.325

(85) Tout., op.cit., p. 247

(٨٦) هسى، العالم البيزنطى، ١٩٦

(٨٧) للوقوف على تفاصيل هذه الحملات، راجع :

Strayer & Munro, The Middle Ages, pp. 219-225

(٨٨) انظر الفصل الثالث.

(89) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 189

البابوية صفعة قوية عندما وقعت معاهدة أمالفى Amalfi مع النورمان فى صقلية، منحـــتهم بمقتضاها الحقوق التى رفضت الاعتراف بها لملوك ألمانيا، أعنى مسألة التقلـــيد العلمانى، فى مقابل أن يتسلم ملوك النورمان مملكتهم إقطاعا من البابوية[٩٠] وكـــان هـــذا يعـــنى وأد اتفاقية كونستانس[٩١] Constance التى وقعت بين البابوية والإمـــبراطورية ســـنة ١١٥٣، والـــتى كانـــت موجهـــة أصلا ضد الإمبراطور البـــيزنطى، وتقضـــى بعدم التنازل عن أى أرض فى إيطاليا، وطرده منها إذا ما حاول القدوم إليها[٩٢].

وفـــى العام التالى ١١٥٧ وقف المندوب البابوى فى بيزانسون Besancon يقـــرأ للإمـــبراطور رسالة البابا[٩٣]، والتى ورد ضمنها كلمة Beneficium والتى نقلـــت إلـــى فـــردريك بمـــا يعـــنى أنه تلقى مملكته "إقطاعا" من البابا فلما احتج الحضـــورعلى ذلك، وكاد المندوب البابوى يفقد حياته، لولا أن تدخل فردريك نفسه فـــى الوقـــت المناســـب، راح ممـــثل الـــبابا هذا يتساءل فى جرأة .. ممن يتسلم الإمـــبراطور إذن إمبراطوريـــته، إذا لـــم يتســـلمها مـــن البابا؟ وجاء رد فردريك بربـــاروســـا علـــى المندوب البابوى فى رسالة شديدة اللهجة[٩٤]، بعث بها إلى البابا هادريـــان الرابع Adrian IV (١١٤٥-١١٥٩) جاء فيها: "إن الله، الذى منه يستمد كـــل سلطان فى السماء وعلى الأرض، قد عهد إلينا بحكم المملكة، وللإمبراطورية اصـــطفانا، أن سلام الكنيسة تحفظه الجيوش الإمبراطورية. وإنه لمن المؤسف أن نضـــطر إلى أن نشكو لرأس الكنيسة، طالبين أن يبقى على روح الخيرية والمحبة والســـلام؛ ذلـــك أن أعمـــال البابا تهدد باظهار الشرور والشقاق الذى سوف يفسد الكنيسة كلها، ويدمر وحدتها، ويعود إلى الصراع بين الإمبراطورية والبابوية ما لم يـــتدخل الله .. لقـــد تملكنا هذه المملكة والإمبراطورية من الله، عن طريق اختيار

---

(90) ADRIAN IV & WILLIAM of Sicily, Treaty of Amalfi, 1156

(91) FRED. BARB., Treaty of Constance., 1153

(92) C.M.H. Vol. V, p. 396

(93) ADRIAN IV, Letter to Frederick I, 157

(94) FRED. BARB., Manifesto of Frederick I, 1157

الأمــراء، فالله وحده هو الذى من خلال آلام ابنه، وضع العالم تحت رعاية سيفين، وفــوق هــذا فــإن بطرس الرسول قال: "أكرموا الجميع، أحبوا الإخوة، خافوا الله أكرموا الملك" (رسالة بطرس الأولى ١٧/٢) - ومن ثم فإن من يقول، بأنا قد تلقينا التاج الإمبراطورى إقطاعا من البابا، يتحدى القانون الإلهى، ويدعى على بطرس، ولا يعدو أن يكون كذابا".

وكانــت رسالة هادريان قد أدت إلى توحيد أمراء ألمانيا خلف ملكهم، وجاء ذلــك نتيجة طبيعية للسياسة المرنة التى اتبعها فردريك فى بداية عهده، من التقرب إلــى الأمــراء، والتودد إلى خصوم الهوهنشتاوفن التقليديين، أعنى عائلة الولفيين. ومــن ثم لم يعد الأمر كما كان عليه من قبل زمن هنرى الرابع، الذى أثار حفيظة الأمــراء ضــده بسياسته العنيفة تجاههم بعد بلوغه سن الرشد مباشرة، خاصة فيما يــتعلق بمحاولاته لاسترداد أراضى التاج، التى كان الأمراء أنفسهم قد اغتصبوها وهــو تحت الوصاية. لذلك أدرك هادريان الرابع أن سهمه جاء طائشا، وأن الوقت لــم يكن ملائما، بالإضافة إلى أن شخصية البابا نفسه، لم تكن لها جوانب شخصية سـلفه جـريجورى الســابع ولا خلفه إسكندر الثالث، الذى لم يكن سوى المندوب رولان Roland إلــى الإمبراطور فى بيزانسون. لهذا كتب هادريان الرابع رسالة ثانية إلى الإمبراطور، تعد فى حد ذاتها اعتذارا رقيقا عما جاء فى رسالته الأولى، وقــدم له تفســيرا حــول مــا يعنيه فى رسالته الأولى، قال : "علمنا أنك غضبت لاستخدام كلمة beneficium، غير أننا استخدمنا هذه الكلمة فى معنى يختلف تماما عــن مفهومهــا السائد، بل بما تعنيه فى مفهومها الأساسى، إذ تتكون من مقطعين، bonum & factum بمعــنى، شئ طيب أو جميل أو معروف (bonum factum) ولــم نســتخدمها على أنها تعنى feudum (fief) إقطاعا. فإذا ما قلنا beneficium مــن الله لا تعــنى إقطاعا، بل نعنى عطفا من الله. ولعلك تعلم يقينا أن وضع التاج على رأسك، يجب أن ينظر إليه باعتباره "عملا طيبا"[٩٥].

---

(95) ADRIAN IV, Letter to Frederick I, 1158

ومـــرت الأزمة بسلام .. أو هكذا بدا. لكن فردريك خرج منها باستنتاج له أهميـــته، إذ أيقـــن أنـــه مـــا دام قد تلقى الإمبراطورية من الله، فلابد أن تكون لها قداســـتها، ومـــن هـــنا خلع عليها لقب "الإمبراطورية الرومانية المقدسة Sacrum imperium فى مقابل الكنيسة المقدسة، Sancta ecclesia (٩٦). ولا شك أن هذا قد لقـــى الامتعاض من جانب البابا الجديد إسكندر الثالث (١١٥٩-١١٨١) الذى تمثل علـــى الفور فى استنتاج عهده بإصدار قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور عام ١١٥٩، وأحـــل رعيته من يمين الولاء له، وجدد ذلك ثانية سنة ١١٦٣ من مهربه فـــى فرنسا. ولم يكن غريبا أن تلقى سياسة الهوهنشتاوفن الرفض من جانب ملوك أوروبـــا، وكلمـــا ازداد ضـــغط وعداء الأباطرة للبابا، كلما وجد هذا عند الملوك الآخريـــن عونا له(٩٧)؛ ذلك أن أوروبا القرن الثالث عشر لم تعد هى أوروبا القرن الحـــادى عشر، فالبابوية ازداد سلطانها بسبب زعامتها للعالم المسيحى الغربى فى الحـــروب الصليبية، وملوك إنجلترا الأنجويين، وفرنسا. والأخيرون بالذات لم يكن مـــن الســـهل عليهم أن يقبلوا الأفكار الهوهنشتاوفنية عن الإمبراطورية "الرومانية" ومـــا يستتبعها من فكرة السيادة العالمية. هذا بالإضافة إلى أن الأحداث الداخلية فى ألمانـــيا، وازديـــاد نفوذ أمراء الإقطاع، وتحالفهم مع البابوية فى كثير من الأحيان ضـــد الســـلطة الشرعية فى ألمانيا، كل هذا جعل الصراع بين البابا والإمبراطور يسير فى صالح الأول.

وقـــد راحـــت البابوية تضع العراقيل فى وجه الإمبراطور الألمانى، وتثير ضـــده مـــدن العصبة اللومباردية فى شمال إيطاليا، وتحرك فى داخل ألمانيا ذاتها كوامن البغضاء والتمرد من جانب الأمراء ضد التاج، ووجدت فرصتها سانحة بين عائلـــة الولفيين، الأعداء التقليديين للهوهنشتاوفن، ووصلت حبال تآمرها مع هنرى الأســـد زعـــيم البيت الولفى، الذى رفض الالتزام بواجبات الفصل الإقطاعى تجاه ســـيده، وأبى مشاركة فردريك فى حملته الخامسة إلى إيطاليا عام ١١٧٤، مما أدى

(96) Barraclough, The origins of Modern Germany. P. 170
(97) Pirenne, op. cit. P. 273

إلـــى هـــزيمة مـــروعة فـــى عـــام ١١٧٦ عند ليناتو Legnano على يد العصبة اللومباردية، وراح ذليلا يطلب الصفح والغفران من البابا الذى أملى شروطه وحقق الآن ســيادته كاملة[٩٨] .. ففى البندقية، وفى كنيسة القديس مرقس عام ١١٧٧، جاء الإمبراطور إلى البابا منكس الرأس، تائبا، خر راكعا وأناب، وسجلت لوحة السمو البابوى كانوسا جديدة!!

. وتمـــثل انتصار البابوية وسموها فى مجمع اللاتيران الثالث الذى عقد تحت رئاســة إســكندر الثالــث عـــام ١١٧٩، ووضع لأول مرة فى العصور الوسطى، الأغلبـــية العدديـــة فى الصورة، فقد اعتبر الكرادلة جميعا مهما اختلفت درجاتهم ناخبيـــن، لهـــم حق الإدلاء بصوتهم إذا ما حدث اختلاف حول اختيار البابا الجديد، واشترط أغلبية الثلثين كضرورة لصحة الاختيار، واستبعد الإمبراطور والاكليروس الرومانى والجموع من عملية الانتخاب[٩٩]. ومن ثم عوض هذا القانون النقص الذى كـــان يعـــتور قانون اختيار البابا، الصادر عن مجمع روما عام ١٠٥٩ على عهد الـــبابا نيقولا الثانى، الذى كان يقيم لموافقة الإمبراطور قدرا من الاحترام، وأن لم يكن بصورة عملية[١٠٠].

غير أن الإمبراطور العجوز الذى قبل كارها، عاد إلى ألمانيا ليصفى حسابه مـــع غريمه هنرى الأسد، فلما تم له ما أراد، دخل فى مفاوضات مع ملك صقلية، أسفرت فى النهاية عن زواج ولى العهد الألمانى هنرى السادس، من وريثه عرش الـــنورمان فـــى صـــقلية، الأمـــيرة كونســـتانس[١٠١]، وكان هذا فى حد ذاته نصرا دبلوماســـيا رائعـــا، حققـــته الإمبراطورية فى مواجهة الحصار البابوى. وما لبثت الـــبابوية أن لقيت صفعة أخرى، أشد وأنكى، بعد ذلك بعام واحد (١١٨٧)، عندما استرد المسلمون تحت زعامة صلاح الدين الأيوبى، بيت المقدس من يد الصليبيين.

---

(98) Z. Brooke, op. cit. pp. 453-457

(99) ALEX. III., Papal election decree, 1170

(100) NICHOLAS II, Papal election decree, 1059

(101) FRED. BARB., Peace of Constance, 1183

والواقع أن تلك الزيجة عوضت جميع ما لقى فردريك من مذلة على أيدى أهل روما ولمبارديا والبندقية، فضلا عن البابوية، وكيف لا، وقد أصبحت ألمانيا وصقلية بغناها دولة واحدة، وفكى كماشة حول روما والبابوية، مما سيجعل الجالس على عرش ألمانيا، يملى إرادته على البابوات والقومونات الإيطالية.

لكن البواعث التى جعلت من اجتماع هذه النعم صورا زاهية الألوان فى أعين الهوهنشتاوفن كانت هى بعينها البواعث التى حملت البابوية أخيرا على إبادة تلك الأسرة، حتى إذا بدأ الصراع بينهما مرة أخرى، لم يستطع ذلك الصراع إلا أن يكون طويلا ومريرا.

فقد كان هنرى السادس أشد عنفا من أبيه فى تطبيق السياسة الهوهنشتاوفنية، فبعد أن توج إمبراطورا بيد البابا كلستين الثالث Celestine (١١٩١-١١٩٨) فى عيد القيامة، الخامس عشر من إبريل عام ١١٩١، رفض البابا تتويجه ملكا على صقلية، ولم تفلح الجهود التى بذلها هنرى فى ذلك، أو المفاوضات التى دارت فى هذا الشأن، لأن ذلك كان يتعارض معارضة تامة مع السياسة البابوية، ولكن هنرى لم يقف عاجزا أمام عناد البابوية، فتوج ملكا على صقلية – رغم أنف البابا – على يد رئيس أساقفة مسينا Messina فى ليلة عيد الميلاد لعام ١١٩٤، أعنى ٢٥ ديسمبر ١١٩٣. وفى اليوم التالى ولد له ولده من زوجه النورمانية، فردريك الثانى، الذى أصبح فيما بعد أعجوبة الدنيا Stupor Mundi وفى الدايت الذى عقد فى فيرتزبرج Wurzburg سنة ١١٩٦، وافق الأمراء الألمان على اقتراح هنرى السادس بتتويج ابنه فردريك ملكا، وله من العمر عامان. وكان هذا يعنى أن ملك الرومان rex Romanorum من وجهة النظر الألمانية، كان له حق ممارسة سيادته تلقائيا على الأقاليم الإيطالية، حتى قبل أن يتوج إمبراطورا بيد البابا(١٠٢).

غير أن الموت المفاجئ لهنرى السادس عام ١١٩٧، قلب خطط الهوهنشتاوفن كلها رأسا على عقب، وكانت فرصة العمر التى لن تجد البابوية لها مثيلا، لتطبيق نظرية السمو بكل ما تعنيه. أما فى الداخل فكان يعنى إشارة البدء للخصمين اللدودين،

(102) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 205

الوفيين والهوهنشتاوفن، ليشعلا من جديد نيران الصراع العنيف بينهما، فتجاهل الفريقان مسألة اختيار فردريك الثانى ملكا، ونادوا بملكين جديدين متنافسين، أوتو الرابع Otto IV دوق برنسويك Brunswick ابن هنرى الأسد، الولفى وفيليب السوابى Philip of Swabia، أخ الملك الراحل، الهوهنشتاوفنى. بينما جاهدت كونستانس للاحتفاظ بصقلية لابنها الطفل. غير أنها لم تلبث أن ماتت فى نوفمبر ١١٩٨، وتركت طفلها تحت وصاية البابا الجديد أنوسنت Innocent III، الذى أصبح بمقتضى هذه الوصية والوصاية، السيد الإقطاعى للمملكة الصقلية فى الجنوب، والذى وجد فى الحرب الأهلية الألمانية سعادته وسمو البابوية، فراح ينفخ فيها من روحه، ليزيدها ضراما، وأهمل شأن الطفل الذى ترك لينمو دون رعاية، شأن أى غلام يتخبط فى شوارع بالرمو وأسواقها العامة.

وإذا كان هناك سبب رئيسى يعزى إليه استمرار الحرب الأهلية هذه، قرابة ثمانية عشر عاما (١١٩٨-١٢١٤)، فهو أنوسنت الثالث، الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ما بدأ فيه فى القرن الحادى عشر جريجورى السابع، أعنى ترجمة الأيديولوجية البابوية عن السمو، إلى حقيقة واقعة. فخلال عهده أوضحت البابوية بؤرة السياسة الدولية فى أوروبا، وخارجها، لقد عهد الآن بإدارة حكومة المجتمع المسيحى لواحد من أكفأ خلفاء القديس بطرس وأكثرهم اقتدارا، والذى استخدم سلطانه الموروث باعتباره "نائب المسيح" على الأرض(١٠٣).

وهذا المصطلح الأخير يعد يقظة الارتكاز الرئيسية فى الأيديولوجية البابوية خلال هذه المرحلة. ففى القرون الأولى كان المصطلح الشائع عن البابا – كما علمنا – والذى خلعه البابوات على أنفسهم، هو "نائب بطرس" Vicarius Petri، لكن هذا المصطلح بدأ يختفى تدريجيا مع ازدياد السلطة البابوية، ليحل محله لقب آخر، يواجه "قداسة" الإمبراطورية الرومانية، التى خلعها فردريك برباروسا على إمبراطوريته، ويعبر عن سمو السلطة البابوية وفعالية تأثيرها، وذلك ابتداء من منتصف القرن الثانى عشر فأصبح البابا "نائب المسيح" Vicarius Christi.

---

(103) Kantorowicz., Frederick the Socend,.pp. 39-40.

وكـــان انوســـنت الثالث خير من يعبر عن هذه المرحلة الجديدة من مراحل الســـمو، فقــد كتب يقول: "نحن خلفاء أمير الرسل إلينا ولسنا نوابا عنه، بل ولسنا نوابـــا لأحـــد من بنى البشر .. حتى الرسل .. ولكنا نواب يسوع المسيح نفسه"(١٠٤) وخاطـــب مندوبى فيليب السوابى الذين جاءوه عام ١١٩٩ أو ١٢٠٠ بقوله، تعبيرا عن فكره "أن ملكى صادق Melchisedech باعتباره ملكا لأورشليم، وكاهنا أعلى، إنمـــا كـــان يمثل الكهانة فى علاقتها بالعالم، وتفوق السلطة الروحية على الزمنية Praeminentiam quam Sacerdotium habet ad rgenum لأن الاثنتيـــن كانـــتا متحدتين فى شخص الملك الكاهن. وكان ملكى صادق هو الشخصية التى استخدمها فى أولى رسائله إلى الأمراء الألمان الاكليروس والعلمانيين حوالى الثالث من مايو عـــام ١١٩٨، ليوضـــح سمو المسيح باعتباره ملك الملوك وسيد السادات(١٠٥). لقد كان الكاهن الملكى الأعلى للكنيســـة المسيحيـــة، والإمبراطوريـــة الحـــق Verus Imperator للإمـــبراطورية المسيحية، والقاضى الأول فى عالم المسيحية، الثلاثة فى واحد، والواحد هنا هو البابا(١٠٦).

وفى رسالة بعث بها إلى رئيس أساقفة رافنا فى عام ١١٩٨، قال : "الحرية الكنســـية لا يمكـــن أن ترعى إلا إذا تملكت الكنيسة الرومانية السيادة الكاملة على الشـــئون الزمنـــية والروحية على السواء"(١٠٧). وكتب إلى ملك أرمينيا سنة ١١٩٩ يقـــول: "..يجب أن تكون بمجامع قلبك وفيا للكرسى الرسولى، وأن تلجأ إلى عون الكنيسة الرومانية، ليس فقط فى الأمور الروحية، بل فى المسائل الدنيوية"(١٠٨).

ويـــدون أنوسنت الثالث فكره عن السمو البابوى فى عبارات صريحة، بعث بهـــا إلـــى حاكم تسكانيا ونبلائها، فى أول سنى اعتلائه عرش البابوية، جاء فيها: "حيـــث أن مبدع الكون قد حباه فى القبة الزرقاء بمصدرين أحدهما للضياء والآخر

---

(104) Souyhrtn, op. cit. pp. 104-105

(١٠٥) انظر Kantorowicz, op. cit,. p. 40

(106) Ibid., pp. 40-41

(107) INNOCENT III, Letter to the Archbishop of Ravenna.

(108) INNOCENT III, Letter to the King of Armenia, 1199.

للـــنور، الأول للـــنهار والـــثانى فى الليل – فإنه فى سماء الكنيسة الجامعة، وضع مرتبتين .. العظمى لرعاية الأرواح كالشمس للنهار، والدنيا لرعاية الأجساد كالقمر فى الليل .. هاتان هما السيادة الكنسية والسلطة الملكية.

والآن فكما أن القمر يستمد نوره من الشمس، وهو دونها فى الحكم والكيفية، فـــى المكانـــة والســـيادة، الســـلطة الملكـــية بالمـــثل تستمد بها مجدها من السيادة الأســـقفية"(١٠٩). وحـــتى يدعـــم أيديولوجيته بأسانيد لا تجد تحديا لدى مؤيدى الحق الأمـــبراطورى فـــى السيادة، لجأ إلى الكتاب المقدس، وراح فى إحدى عظاته عن التكريس يقول: لقد قيل لى فى شخص النبى: "قد وكلتك على الشعوب وعلى الملك لـــتقلع وتهـــدم وتهلـــك وتنقض وتبنى وتغرس" (ارميا ١/١٠) وقيل لى أيضا فى شـــخص الرسول. "وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات"، وهكذا عهد للبعض بشئ من الأمـــر، بينما خول بطرس السلطة كاملة.. أنا بحق إذن نائب يسوع المسيح، خليفة بطـــرس، المصطفى من قبل الرب، والقائم بين الله والناس. أدنى من الله .. وأعلى من بنى البشر، يدين ولا يدان!!" (١١٠).

ولـــم تكن فكرة "ملك الرومان" أو مجرد المصطلح نفسه، أو حتى ال"مهمة" الـــتى أرادتها له البابوية، واردة على الإطلاق فى البناء الأساسى للبرنامج البابوى عـــند انوسنت، ولم يستخدم هذا المصطلح. لقد كان هناك فقد بالنسبة له ملك ألمانيا أو فرنســـا أو إنجلـــترا، وليس "ملك الرومان" الذى أصبح من حقه ممارسة سلطة شرعية على الأقاليم الإيطالية، وفوق هذا الادعاء ب"حق" فى أن يصبح إمبراطورا رومانـــيا ومـــن ثـــم ارتبطت هذه السياسة الخاصة بتحقيق السمو البابوى، بصورة قاطعة بالرفض الأنوسنتى لفكرة "ملك الرومان"(١١١). وكان هذا بالطبع يتعارض مع إصـــرار الهوهنشـــتاوفن علـــى أن اختـــيار ملـــك ألمانى، يعطى الحق فى التاج الإمـــبراطورى باعتباره "ملك الرومان"؛ ولذا كان من الطبيعى أن يرفض أنوسنت الثالـــث ذلـــك، وأن يعلن صراحة أن تمام التصديق على المنصب الإمبراطورى،

(109) INNOCENT III, Letter to the Prefect Acerbus and the nobles of Tuscany, 1198.
(110) INNOCENT III, Sermon on the Consercration
(111) Ullmann., A short history of the Papacy, p. 209

مسألة رسولية بحتة. وأن التاريخ يدعم رأيه هذا[١١٢].

لقد كان دائما يصر على أن يصبح "صانع الأباطرة" فالبابا باعتباره "نائب المسيح"، له وحده الحق فى خلق "المدافع" عن العالم المسيحى، الذى لا يعدو كونه مجرد "مساعد" للبابوية فى تحقيق أغراضها وأهدافها[١١٣]. وهكذا أضحت كلمة beneficium التى أثارت ثائرة فردريك بربروسا فى بيزانسون عام ١١٥٧، واعتذر عنها هادريان الرابع، حقيقة واقعة على يد أنوسنت الثالث، إذ الأمير عنده يتسلم مملكته ك"إقطاع" beneficium[١١٤].

وقد وجدت البابوية لها مؤيدين كثيرين من رجال الفكر، وإن كان معظمهم ينتمى إلى الرهبان المتحمسين لحركة الإصلاح، أو الاكليروسيين المدافعين عن السيادة البابوية، فهذا سوجر Suger (+١١٥٠) رئيس رهبان دير سانت دونى St.Denis، والوزير الفرنسى الأشهر لملكى فرنسا لويس السادس (١١٠٨-١١٣٧) ولويس السابع (١١٣٧-١١٨٠)، يعلن عن تأييده للسياسة البابوية وسمو سلطانها، برغبته فى أن يضع ملوك فرنسا وإنجلترا أنفسهم عند قدمى الحبر الأعظم، ويحث الإمبراطور على التفانى فى الخدمة كسائس Strator من أجل أمير الأمراء، يعنى البابا ويشاركه الرأى جون السالزبورى John of Salisbury (+١١٨٠) الأسقف الإنجليزى المتضلع من الثقافة الكلاسيكية فى أصولها اللاتينية، وشريك ورفيق توماس بيكيت Thomas Becket (+١١٧١) رئيس أساقفة كانتربورى Canterbury، فى تحديه ومنفاه، حين يعتبر الأمراء مجرد وزراء للكنيسة، وأن كل قانون لا يحمل طابع القانون السماوى، يصبح خواء لا غنى فيه ولا نفع، وكل نظام علمانى لا يتفق والنظام الكنسى يجب اعتباره شرا مستطيرا[١١٥]. كما أن توماس بيكيت نفسه يعتبر الملوك أفصالا للكنيسة[١١٦].

---

(١١٢) يشير بذلك إلى تتويج شارلمان على يد البابا ليو الثالث، وتتويج أوتو الأول على يد يوحنا الثانى عشر.

(113) Ullmann, The growth of Papal Gevervment, pp. 28-31 وأيضا Ch. Brooke, the structure of Medieval Society, p.60.

(114) Kantorowicz, op. cit., p. 44.

(115) Mundy, op. cit., p. 320.

(116) Barlow, The feudal Kingdom of England, pp. 290-303.

وهـذا هو بونكامبانو Buncompagno من Signa، الذى كان يعلم أن البابا يحب أن يخاطب بـ"أمير الأمراء"، اقترح على رجال القانون أن يجعلوا الالتماسات المقدمة في المجامع الكنسية تأتى ديباجتها على هذا النحو: "إنى لأقف بين يدى أب الآباء الذى نال السلطان الكامل على الأرض، خلفا لسمعان بطرس"، أو "إنى لأقف بين يديه .. ذلك الذى دانت له أعناق الملوك والأباطرة، الذى يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء". بل إن أعداء البابوات أنفسهم، قبلوا عظمتهم، فها هو إسكندر الروى Alexander of Roes أحد رجال القانون الشهيرين، والمعروف بولائه للإمبراطورية، يعترف أنه في مجمع ليون Lyons الثانى المنعقد سنة ١٢٧٤، "لم تكن الجموع المسيحية والاكليروس وحدهم عند موطئ قدم الحبر الرومانى، بل ملوك الدنيا بأسرها، واليهود واليونان والتتار .. سواء يعترفون جميعا أن ملك العالم يتعلق بقوائم عرش الأسقف الرومانى"[١١٧]. ويرى بطليموس اللوقى Ptolemy of Lucca تلميذ توماس الأكوينى Tnomas Aquinas فيلسوف المسيحية الشهير في القرن الثالث عشر، أن الإمبراطور خادم الكنيسة، وأنه تسلم الإمبراطورية من الكنيسة بمقتضى يمين يشبه يمين الولاء، من أحد أفصال الكنيسة وهو يحصل على إقطاع. وهذا هو السبب الذى يجعل الكنيسة قادرة على عزل الإمبراطور[١١٨].

لقد كانت البابوية تصر دائما على أنها الوحيدة القادرة على معرفة "قانون الحياة المسيحية"، على اعتبار أن البابا يمتلك قوة "الإبداع" auctoritas التى تمنحه سلطة الربط والحل والتوجيه. والبابا في ممارسته لسلطانه هذا باعتباره حاكما، لا يقف داخل الكنيسة، بل خارجها وفوقها .. وفى هذا الإطار فليس من حق أحد أن يقاضيه[١١٩].

---

(117) Mundy, op. cit., p.323

(118) Ibid., p. 324

(119) Ullmann, Law and politics in the Middle Ages. pp.121-123, 141.

ولــم تعدم الإمبرطورية من يتصدى للرد على الادعاءات البابوية، فقد كتب هوجوشيو Huguccio البيزى يقول،: لا أعتقد أن الإمبراطور قد تلقى سيفه الزمنى وبالــتالى السـلطة الإمــبراطورية من البابا وحده، ولكن بالمثل أيضا من اختيار الأمــراء والرعــية(١٢٠). وعلى نهجه نهج جون الباريزى John of Paris ليقوض الأســس التى بنى عليها البابا ادعاءه، فيما يتعلق بمسألة "تتويج" الإمبراطور، فذكر أن هذا العمل قد تم أيضا بمساعدة الشعب الرومانى، ذلك لأن الأباطرة تولوا حماية الكنيســة ضــد الوثنيين والمارقين، وهذا العمل فى حد ذاته كفيل بأن يفضى الدور الرئيســى علــى الــناس، فهم الذين يصنعون الملوك، ويكونون الجيوش، ويقيمون الإمــبراطور(١٢١) أما كينو من بستويا Cino of Pistoia فيتعجب فى دهشة .. ليس ممــا ينافى العقل أن تكون الإمبراطورية قد وجدت من الله والناس.. لكن الذى لا شــك فيه، أن الإمبراطور قد اختير من قبل الناس، والإمبراطورية دعيت "مقدسة من الله"(١٢٢).

وقــد تبدو المسألة على هذا النحو متكافئة، لكن الأحداث الداخلية فى ألمانيا، وقــد أعقبــت وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ - كما بينا - هى التى أدت إلى أن تضــرب الــبابوية ضــربتها والحديدة محماة فى هذه القصبة المرضوضة، أعنى ألمانــيا. وبــنفس الأسلوب الذى اتبعه البابا جريجورى السابع فى سبعينات القرن الحــادى عشر، عندما ظل يراوغ ثلاث سنوات تباعا (١٠٧٧-١٠٨٠) فى إصدار قراره بأحقية أى من الملكين المتنافسين، هنرى الرابع، الملك الشرعى، والذى عفا عــنه الــبابا منذ أيام قلائل، ورودلف السوابى Rudolph of Swabia الذى اختاره الأمــراء ملكــا منافســا، اكتوت خلالها ألمانيا بنيران الحرب الأهلية، سار أيضا أنوســنت الثالــث، وراح يماطل خمس سنوات (١١٩٧-١٢٠١) فى إصدار قراره بشرعية اختيار أى الملكين، فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، أو أوتو الرابع الولفى. وأخذ ينفخ فى آتون الصراع لتعلو ناره. ودفعت ألمانيا الثمن فادحا فى حرب أهلية

(120) Mundy, op. cit., p. 332
(121) Ibid, p. 332
(122) Ibid, p.331

طاحـنة، بيـنما كانـت خسارة السلطة الإمبراطورية أكثر فداحة؛ تمثلت فى تلك التـنازلات المهيـنة التى قدمها المرشح الولفى، أوتو الرابع؛ لأنه لم يكن صاحب الحـق الشرعى فى العرش. فاعترف باستقلال الدولة البابوية فى إيطاليا، وتحرير الكنيسة الألمانية من السيادة الملكية(١٢٣). وهكذا خسرت الإمبراطورية كل ما جاهد أباطرتها فى سبيله قرابة قرنين ونصف من الزمان .. وكانت سعادة البابوية غامرة لانفصـال صـقلية عـن ألمانيا، وفوق هذا وذاك، تربع البابا على عرش السيادة الروحـية والزمنية، باعتباره الحكم الفصل والقاضى الأول. وخلال السنوات التالية عمـل أنوسـنت بكـل الوسـائل المشروعة وغير المشروعة، على تحويل أنظار الاكليروس الألمانى تجاه روما ما لم يحدث من قبل أبدا.

ومـا أن تحقـق لانوسنت ما أراد، أصدر على الفور فى عام ١٢٠١ وثيقة علـى جانب كبير من الأهمية، تلخص فى وضوح كامل فكرة السمو البابوى بأجلى معانيها، وتجسد بما لا يدع مجالا للشك، التطبيق العملى لهذه الأيديولوجية البابوية.

جاءت ديباجة الوثيقة على هذا النحو:

"إن عمـل البابا الرئيسى، العناية بما يهم الإمبراطورية الرومانية، حيث أن الإمبراطورية تعود بأصولها إلى البابوية، ومنها تستمد سلطانها؛ أما أصولها فلأنها نقلـت أصـلا مـن اليونان (البيزنطيين) بواسطة البابوية ولمصلحتها (يعنى تتويج شـارلمان) .. ولقـد أقـدم الـبابوات على هذا العمل لضمان أقوى للكنيسة. وأما سـلطانها، فلأن الإمبراطور اعتلى العرش بيد البابا الذى باركه وتوجه وعهد إليه بالإمبراطورية"(١٢٤).

ولعلـنا نلحظ أن أول عبارة استهل بها البابا قرار المفاضلة بين المرشحين الـثلاثة، "أن عمـل البابا الرئيسى، العناية بما يهم الإمبراطورية الرومانية" وكلمة "الرئيسـى" بصـفة خاصـة تحدد مهمة البابا فى القرن الثالث عشر .. إذ غدا سيد

---

(123) Thompson & Johnson, op. cit. p.413

(124) INNOCENT III, Decision of Innocent III in nregard to the disputed election, 1201

العـالم الزمـنى الإمـبراطور الأوحـد والكاهن الملكى الأعلى، والقاضى الأول والديـباجة مليـئة بالمغالطـات وتزيـيف الحقائق، فالبابوية تعتبر شارلمان ابتداء الإمبراطورية الرومانية التى صنعتها بيديها على الرغم من أن الملك الفرنجى توج إمـبراطورًا فـى إمـبراطورية رومانية قائمة ووضع فى الترتيب "البابوى" خليفة لقسطنطين السادس بعد اعتبار العرش شاغرا لوجود ايرين عليه وهو ما لم يسبق بـه التقليد الرومانى هذا مع العلم أن للكنيسة شأن أصيلا فى أحضان الإمبراطورية الرومانية، وعلى غرار تنظيمها الإدارى وضعت الكنيسة نظمها ورغم كل ذلك لم يـتردد المتحمسـون للسـمو البـابوى فى أن يتخذوا من هذه الوثيقة مصدر إلهام لكـتاباتهم ونشـر آراء البابوية عن السيادة العالمية، ومكانة البابا المتميزة روحيا وزمنـيا فقد كتب ألبرت Albert Behiam رئيس شمامسة Passau فى عام ١٢٤٠ يقـول : "ألـيس بمقـدور البابوات أن ينقلوا الإمبراطورية ثانية إلى الفرنسيين أو الـنورمان، إذا كان الألمان عاجزين عن أن يجدوا بينهم من يحمى الكنيسة بصورة فعالة؟"(١٢٥).

وعلـى الرغم من أن انوسنت الثالث اعترف فى قراره هذا، بأحقية كل من فـردريك الثانى أولا، ثم فيليب السوابى ثانيا فى العرش، واعترف بعدم أحقية أوتو الـرابع الولفى، وكراهية الأمراء الألمان له، إلا أنه أعلنه ملكا ووقف إلى جواره، متحديا شعور الألمان وحق الناخبين، ومفضلا الشرعية والصلاحية، والتى وضعها فـى بدايـة وثيقـته هـذه معيارا للاختيار، ليؤكد سلطان البابوية على الدنيا وبهذا الاختيار وقف البابا ضد الهوهنشتاوفن، لعدة أسباب ..

أولها: أنه ليس هناك بابا – يحمل المودة لهذه العائلة، وثانيها أن الإمبراطور الهوهنشـتاوفن يمـثل الخطر الداهم للبابوية، بينما الولفيون لا ضير منهم، خاصة وأنهم ليس لهم أتباع كثيرون فى ألمانيا، ومن ثم يمكن أن يصبحوا أداة طيعة فى يد الـبابوية الـتى أعطتهم عرشا لا يستحقونه، فيصبح إمبراطور الولفى بذلك صنيعة البابا ويضحى البابا "صانع الأباطرة".

---

(١٢٥) Mundy, op. cit. p. 322 وقد ناقشنا هذه الوثيقة البابوية تفصيلا الفصل الرابع.

ومـــع التأييد الكبير من البابوية لأوتو، إلا أن قضيته أمست خاسرة، وبعين المصـــلحة أبصـــر انوســـنت ذلك، فراح يغرى فيليب السوابى على تقديم تنازلات جديـــدة تفوق ما أقدمه خصمه ومنافسه أوتو الرابع من قبل، فأقدم فيليب على ذلك فـــى وثـــيقة رســـمية عام ١٢٠٣ تعهد فيها بحمل الصليب إلى الأراضى المقدسة، وإعادة كل الأراضى التى ضمها أسلافه أو هو ثانية إلى الكنيسة، وعدم التدخل فى اختـــيار رجـــال الاكلـــيروس، بما يعنى القضاء على مشكلة التقليد العلمانى تماما، والإذعـــان للبابا فى المسائل الروحية، على أن أغرب ما فى هذه التعهدات، السعى لإســـقاط القســـطنطينية واخضاع كنيستها للكنيسة الرومانية(١٢٦). ولعل هذه النقطة الأخيرة بالذات تضع أمام أعيننا أبعاد السمو البابوى نظرية وتطبيقا، وهو ما تحقق لانوسنت في العام التالى مباشرة وإن لم تكن على يد فيليب السوابى.

هكـــذا تحققـــت الـــبابوية أو كـــادت طموحاتها وحسمت القضية لصالحها، وخســـرت الإمبراطورية كل شئ ورغم أن الصراع استمر عنيفا طيلة نصف قرن آت، إلا أن نظـــرية السمو البابوى أصبحت واقعا عمليا لا مراء فيه؛ ذلك أن فيليب الســـوابى لم يلبث أن اغتيل عام ١٢٠٨ ولم يجد البابا غضاضة فى أن يدعم موقف أوتو الرابع ثانية!! فالمسألة أمست لعبة سياسية تحركها البابوية بأطراف أصابعها، وتتـــيه بعروضـــيها إعجابـــا بمجامع قلبها!! فطوال ست سنوات آتية، أدرك الملك الولفـــى -بعـــد فوات الأوان- أن كوارث الحرب الأهلية الطاحنة هذه والتى حاقت بألمانيا تعود فى حدتها إلى التدخل البابوى السافر، فانقلب على الفور هوهنشتاوفنيا فـــى سياســـته ولم يكن من الصعب على البابوية أن تتنكر له من جديد، وأن يبدو لعينـــيها واضـــحا الآن، فردريك الثانى ذلك الطفل الذى ظل ستة عشر عاما نسيا منسيا، والذى غدا الآن فى باكورة شبابه فناداه إنوسنت من روما وأعلنه ملكا على ألمانيا عام ١٢١٢، وأيده بجيوشه فيليب أوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا (١١٨٠-١٢٢٣) لينتصـــر علـــى الـــتحالف الولفـــى الإنجليزى فى موقعه بوفان Bouvines ســـنة ١٢١٤ والتى تعد من أشهر المعارك فى التاريخ، إذ غدت فرنسا فى أعقابها أقوى دولة فى أوروبا ولتبيت البابوية صاحبة السيادة على الجميع.

---

(126) PHILIP of SWBIA, concessions of Philip of Swabia to Innocent III, 1203

هكــذا .. فى عام ١٢١٤ اعتلى فردريك الثانى عرش ألمانيا ملكا فردا، بعد أن قــدم للبابا، إنوسنت الثالث، الذى تذكر بعد طول غياب، أنه الوصى على الأمير فردريك، تنازلات جمعت فى جوهرها كل ما قدمه أوتو الرابع وفيليب السوابى من قبل، بالإضافة إلى تنازله رسميا عن حكم صقلية، أو بتعبير آخر التعهد بعدم الجمع بين ألمانيا وصقلية تحت سيادة ملك واحد(١٢٧).

علـــى هذا النحو تسنمت البابوية فى عهد إنوسنت الثالث، عرش السمو، ولم يكـــن ما فعله بونيفاس الثامن Boniface VIII من بعد فى القرن الرابع عشر، إلا تدعـــيما لما أرسى القواعد منه سلفه إنوسنت هذا وكيف لا، وقد تربع إنوسنت على عـــرش الســـيادة المطلقـــة، فالقسطنطينية أمست عند قدميه، بعد أن فض حصانتها للمرة الأولى منذ بناها قسطنطين جنود الصليب فى الحملة الرابعة، وصليبية أخرى تحقق فوزا ضخما على الموحدين فى الأندلس عام ١٢١٢، والملك الألمانى الجديد يبدى الطاعة، وإن كان ممتعضا وقرارات الحرمان من تحت كرسى "نائب المسيح" تـــترى فـــوق رأسى ملكى فرنسا وإنجلترا، إذ هو يجبر فيليب أوغسطس على أن يرتضـــى زوجـــة معينة، ويكره جون الإنجليزى على تعيين أسقف بعينه وها هو يرغم ألفونسو Alfonso صاحب ليون على أن يفسخ زواجه من ابنة عمه، ويلعب دورا بارزا فى حسم مسألة الصراع على العرش الهنغارى، ويصبح ملوك إنجلترا وأرغونـــة والبرتغال تحت السيادة البابوية، بينما أمست صقلية إقطاعا بابويا ويبدى نصـــائحه لحكـــام بوهيميا وبولندا والدانمرك؛ ويتدخل فى كل المشكلات السياسية الكـــبرى فـــى أوروبا، ويغرق الكنيسة فى الشئون السياسية لأوروبا إلى الحد الذى يصبح ذلك "عمله الرئيسى" وهو المسئول عن اختيار الأباطرة وإقرار سيادة الدولة البابوية!!

ولكى يغدو التطبيق أكثر عملية، بقيت هناك صفحة أخيرة، كان على البابوية أن تطويها، لتودع الإمبراطورية كارهة إلى مثواها الأخير؛ ذلك أن فردريك الثانى

---

(127) FREDERICK II, Promise to Innocent III, 1213 وأيضــا Promise to resigh Sicily, 1216

الذى توج إمبراطورا عام ١٢٢٠ لم يكن أقل حرصا من أسلافه الهوهنشتاوفن على فكـــرة الســـيادة الإمبراطورية وإن كان قد قبل مرغما شروط البابوية وصولا إلى عـــرش آبائه، فراح يسعى لبناء دولة قوية[١٢٨]، وينقض كل ما عده انتقاصا لمكانة الإمـــبراطـــور وســـلطـــــان الـــتـــاج تجـــاه البابويـــة، فأصدر البابا جريجورى التاســـع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١) فى أول عهده بالبابوية قرار الحرمان ضد فـــردريك الـــثانى فـــى التاســـع والعشرين من سبتمبر ١٢٢٧، بحجة مماطلته فى الخـــروج بحملـــة صليبية، كان قد تعهد بها من قبل عند تتويجه إمبراطورا وأحل رعيـــته مـــن يمين الولاء له. ورغم أن الملك فى العام التالى بالحملة إلى الشرق، وحقـــق خلالها بالاتفاق مع سلطان مصر، الملك الكامل الأيوبى، ما فشل فيه قواد الحملـــة الثالـــثة، جـــده فردريك الأول، و فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وريتشارد الأول ملك إنجلترا، إلا أن البابوية لم ترض عنه، واتهمته بالإلحاد وانتهزت فرصة غيابه فى الأراضى المقدسة، لتشيع بين الناس نبأ وفاته، ولتدفع بجيوشها للاستيلاء علـــى أملاكـــه فـــى إيطاليا فلما عاد فردريك من الشرق، طرد على الفور القوات الـــبابوية، ثـــم دارت المفاوضـــات بين الطرفين، لتنتهى بمعاهدة سان جرمانو عام ١٢٣٠، على أساس إلغاء قرار الحرمان، فى مقابل وضع بعض القيود على سيادته على كنيسة صقلية[١٢٩].

غـــير أن هـــذه المعـــاهدة لم يكتب لها البقاء طويلا وكل ما يمكن قوله بشـــأنها، أنها كانت فرصة للطرفين لالتقاط الأنفاس، ولأن جوهر القضية أعنى السيادة العالمية، هو الذى كان يعنى البابوية فى المقام الأول، والذى لم تبغ عنه حولا. ولذا فقد سعرت نيران الحرب بينهما ثانية، وأمر البابا جريجورى التاسع بعـــض رجـــال اكليروسه، بتدبيج مجموعة من الاتهامات ضد فردريك ففعلوا. وتـــناولها فـــردريك بالـــرد والتفنـــيد[١٣٠]. ولـــم يقتنع البابا بذلك .. ولم يقتنع

---

(١٢٨) للمزيد من التفصيلات عن جهود فردريك الثانى فى هذا السبيل، راجع:

Kantorowicz, Frederick the second., pp.77-163; 215-368

(129) TREATY OF SAN GERMANO 1230.

(130) GREG IX & FRED. II, Papal Charges and Imperial defence, 1238.

الإمبراطور أيضا بقبول فكرة البابوية عن الإمبراطور، باعتباره مجرد "مساعد" لهـا فغزا على الفور شمالى إيطاليا، وأوقع بالمدن اللومباردية والفيالق البابوية المرتـزقة، هـزيمة عـند كورتنوفو Cortenuovo عام ١٢٣٧، وأن لم تكن سـاحقة[131] إلا أنه تاه عجبا بانتصاره، وباعتباره إمبراطورا رومانيا منتصرا، فقـد أرسـل بالأسـرى مـن أعدائه وأعلامهم وأبواقهم، كأسلاب للحرب، إلى الـرومان وأعلـن فـى الوقت نفسه عن مشروعات تعد بعيدة المنال، ظن أنه يستطيع بها استثارة ولاء الرومان له وداعبته الآمال حول إعادة مجد الرومان الأقدميـن، وبعـث الحـياة من جديد فى رومولوس Romulus مؤسس روما واعـتزم تقسـيم إيطاليا إلى أقاليم جديدة يديرها حكام رومان، حتى يعيدوا لها بهاءها المندثر[132]. ولما كان هذا يعد شيئا مخيفا للبابوية ومفزعا، فقد أصدرت من جديد عام ١٢٣٩ قرار الحرمان ضد الإمبراطور[133]، خاصة وأن فردريك قـد عمد إلى إغاظة البابا، فزوج ابنه انزيو Enzio من وريثة عرش سردينيا، وأعلـنه ملكـا علـيها مقتفيا فى ذلك أثر جده فردريك الأول، عندما زوج ابنه هنرى السادس من وريثة عرش النورمان فى صقلية ومن ثم لم يقف الأمر عند حـد الحـرمان الكنسى، بل تخطاه إلى قيام جريجورى التاسع الذى كان يؤمن إيمانا كاملا بأن البابا يجب أن يكون حاكما أوتوقراطيا[134]، بالدعوة لعقد مجمع كنسـى فى روما عام ١٢٤١ لعزل فردريك غير أن بيزا، حليفة الإمبراطور، دفعت بأسطولها بتصيد الأساقفة الوافدين إلى روما، مما أدى إلى غرق بعضهم وأسـر بعض ثان، وحال دون انعقاد المجمع، بينما نجح الإمبراطور فى فرض سلطانه على إيطاليا، فزهقت روح جريجورى التاسع كمدا، فى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٢٤١.

---

(131) Kantorowicz, op. cit., 435-438.
(132) Thompson & Johnson, Op. Cit., p. 423
(133) GREG. IX Excommunication of Frederick II, 1239
(134) Ch. Brooke, The Structure of Medieval Society, p.6

إلا أن هـــذه الخطـــوة من جانب فردريك الثانى، كانت خطأ فادحاء إذ نقلت العــداء الشخصى ما بينه والبابوية، إلى عداء الإمبراطور مع الكنيسة بصفة عامة، بالإضـــافة إلى أنه فقد عطف ملوك أوروبا، الذين رأوا فى الاعتداء على أساقفتهم، عدوانـــا موجهـــا لأشخاصـــهم، وجعـــل من السهل على البابوية تعبئة الرأى العام الأوروبـــى ضد الإمبراطور[١٣٥]. خاصة وأن البابا الجديد إنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤)[١٣٦] كان مصمما على أن يكون كسميه الثالث، وعلى تطبيق نظرية السمو البابوى بكـــل معايـــيرها، باعتـــبار الإمبراطور "مدافعا" عن البابا فحسب، تسلم الإمبراطورية من يده، وهى نفس آراء سلفه الأسبق إنوسنت الثالث[١٣٧].

ومـــن الطـــريف أن إنوسنت الرابع كان صديقا للإمبراطور فردريك الثانى، قـــبل أن يحـــتل كرســـى القديس بطرس ولهذا أصيب الإمبراطور بخيبة أمل بالغة بسلوك صديقه القديم، الذى كان يحمل بين ضلوعه قلبا من ثلج! ويتصرف بتجاهل تام لكل الآداب ومظاهر اللياقة الروحية التى تتفق ومنصبه[١٣٨].

وقـــد سخر كل موارد الكنيسة، وكل مهارة أوتيها ليحطم الإمبراطورية ففر إلى فرنسا، وعقد مجمعا فى ليون عام ١٢٤٥، قرر حرمان وعزل فردريك الثانى، ودعـــوة الناخبيـــن الألمـــان لاختـــيار ملك جديد[١٣٩]. فتحقق بذلك أمل البابا الراحل جـــريجورى التاســـع واســـتخدم فى قرار العزل سلطة نائب المسيح وليس نائب بطرس كما كان جريجورى السابع وأطلق إنوسنت الرابع مندوبيه وجموع الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان للعمل ضد الإمبراطور، وأعلنها صراحة حربا صليبية ضد أسرة الهوهنشتاوفن على حد تعبير أحد المؤرخين الألمان[١٤٠].

---

(135) Strayer & Munro, op. cit., p. 333.

(١٣٦) بعـــد وفاة جريجورى التاسع، تم اختيار البابا كلستين الرابع Celestine IV فى ٢٥ إكتوبر ١٢٤١ لكـــنه لـــم يلبـــث أن مات بعد سبعة عشر يوما وظل كرسى البابوية شاغرا طيلة عامين، حتى اعتلاه إنوسنت الرابع.

(137) Tierney, The Crisis of Church and State, pp. 153-156

(138) Thompson & Johnson, op. cit. p.427

(139) INNOCENT IV., The Second deposition of Frederick II.

(140) Heer, The Medieval World, p.141.

هكذا قاد البابا بنفسه الحرب ضد الإمبراطور والتى أصبحت دون شك حربا أيديولوجية فى المقام الأول[١٤١] وراح يمارس استراتيجية البابوية القديمة بتعيين ملك آخر، رغم أن فردريك لم يلجأ مطلقا لاختيار بابا منافس، فقام إنوسنت بدفع خمسة وعشرين ألف مارك من الفضة إلى أحد النبلاء الألمان، وهو هنرى أمير ثورنجيا، ليقبل تلقى التاج الألمانى من يد شرذمة من الأمراء وانتشر مندوبو البابا فى كل مكان ليشتروا أصوات النصر لهنرى هذا ضد كونراد ابن فردريك، ودفعوا فى سبيل ذلك ستة آلاف مارك وينيف حتى إذا مات هنرى، اختار ملكا آخر، هو وليم كونت هولندا، بينما تعرض الاكليروس الألمانى الموالى للإمبراطور، للقهر والحرمان الكنسى واللعنة من جانب البابا، للتخلى عن مناصرة الإمبراطور، الذى دبرت مؤامرة لاغتياله فى إيطاليا[١٤٢].

وفى عام ١٢٥٠ أنقذ الموت فردريك من الاغتيال!! فتنفست البابوية الصعداء إذ تحقق حلمها الكامل بموت خصمها العنيد، وبانقسام الإمبراطورية بين ولديه، كونراد فى ألمانيا، لمدة أربع سنوات فقط، ومانفرد الابن غير الشرعى، فى صقلية وأيقنت البابوية أن فرصتها لتحطيم الهوهنشتاوفن والإمبراطورية، مواتية ورغم أن إنوسنت الرابع كان مترددا بين أن يبقى على مملكة صقلية تحت السيادة المباشرة للبابوية، أو تعيين حاكم زمنى من قبله عليها يكون فصلا إقطاعيا له، إلا أن غزو كونراد الرابع للأراضى الإيطالية عام ١٢٥٢ حسم هذا التردد فبدأ البابا مفاوضاته لاختيار حاكم زمنى وراح يفاضل بين شارل كونت أنجو Charles of Anjou أخى لويس التاسع ملك فرنسا، واثنين من العائلة المالكة فى إنجلترا.. ريتشارد أمير كورنوول Richard of Cornwall أخى هنرى الثالث الملك وأدموند Edmund ابن الأخير، وظلت المفاوضات دائرة حتى سنة ١٢٥٤ عندما توفى كونراد الرابع[١٤٣].

---

(141) Ullmann, A short history of the Papacy, p.261.

(١٤٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث، راجع:

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 427-428

(143) Waley, Later Medieval Europe, pp. 35-36.

وقــد حــاول إنوسنت الرابع التوصل إلى اتفاق مع مانفرد Manfred، لكن دون جــدوى ولم تلبث القوات البابوية أن لقيت الهزيمة على يد قوات مانفرد الذى أعلن نفسه حاكما لمملكة صقلية، وتلقى البابا خبر الهزيمة وهو على فراش الموت فــى ديسمبر ١٢٥٤ واستفتح خلفه إسكندر الأكبر (١٢٥٤-١٢٦١) عهده بهزيمة أيضا فى أبوليا Apulia صيف ١٢٥٥، ليصبح مانفرد صاحب الشخصية القوية فى الجــنوب، وليــتوج فى بالرمو عام ١٢٥٨ وفى عام ١٢٦١ وصل خليفته الفرنسى أوربــان الــرابع (١٢٦١-١٢٦٤) المفاوضــات التى كانت قد انقطعت بين سلفه الأســبق، وأمــراء أوروبا لحكم مملكة صقلية، وتوصل إلى اتفاق مع شارل كونت أنجــو، يدفــع الأخير للبابا بمقتضاه خمسين ألف مارك فور غزو المملكة وجزية إقطاعــية ســنوية مقدارهــا عشرة آلاف أونصة Ounces ذهبية(١٤٤) ونجح الأمير الفرنسى الطموح فى هزيمة مانفرد وقتله عند بنفنتو Benvento عام ١٢٦٦.

لــم يبق من أسرة الهوهنشتاوفن إلا صبى فى الخامسة عشرة من عمره هو كونراديــنو Conradino ابن كونراد الرابع، الذى أقدم بناء على نصائح مستشاريه على غزو إيطاليا عام ١٢٦٧ ليحكم عرش أجداده ومن الغريب أن روما رحبت به كراهية فى البابا الفرنسى كلمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٦٨) الذى كان أشــد ولاء لفرنســيته من عرشه الأسقفى(١٤٥) وفر البابا إلى فيتربو Viterbo لكن الجــيش الإمبراطورى لقى هزيمة ثانية على يد القوات الفرنسية، ووقع كونرادينو أسيرا وحتى يتم التأكد من القضاء على أسرة الهوهنشتاوفن خصم البابوية اللدود تم اقتــياد هــذا الأسير إلى نابلى، حيث احتزت رأسه عام ١٢٦٨ تحت سمع البابوية وبصرها!

هكــذا أسدل ستار أسود كثيف .. كقطع الليل البهيم، على إمبراطورية قبرت بيد البابوية، بينما لبث البابوات ثلاثة مائة سنين وازدادوا ستا، منذ توج أوتو الأول

---

(144) Ibid. p.38.
(145) Ibid., p.37.

عام ٩٦٢، حتى ارتحل كونراديتو عن الدنيا كارهًا سنة ١٢٦٨، يصعدون إلى قمة السمو البابوى، ولا هم لهم طوالها إلا ممارسة لعبة السياسة، كما لو كانوا من بنيها، تاركين وراء ظهورهم مهمتهم الروحية، بعد أن أصبح "عملهم الرئيسى"- كما عبر عنه إنوسنت الثالث، رعاية الإمبراطورية! حتى إذا أدركوا قمة الجبل على أشلاء ضحاياهم من الأباطرة والمثل، تربعوا على امتداد ثلاثة قرون آتية، كممت فيها الأفواه، وصفدت عقول المفكرين، وسيق كوبرنيكوس Copernicus وجاليليو وغيرهم من العلماء، إلى العذاب زمرا، مما دفع العلماء الإنسابيين فى القرن السادس عشر، إلى أن يلصقوا بهذه القرون صفة العصور المظلمة. وامتهنت عقول الناس، امتلأت جيوب الكنيسة ببيع الغفران فى صكوك! حتى أن ادوارد الثالث ملك إنجلترا، لفت نظر البابا كلمنت السادس بقوله : "إن خليفة الحواريين قد وكل إليه أن يرعى خراف الرب لا أن يجز صوفها!".

ورفع الأسقف الأسبانى الفارو بلايو عقيرته ساخطًا: "إن الذئاب تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحى"!!

لقد حققت البابوية الآن سموها وسيادتها بصورة تكاد تكون كاملة، إلى الحد الذى دفع البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣) إلى مخاطبة فيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥-١٣١٤) بقوله: "اسمع أى بنى إلى وصايا أبيك .. ولتأخذ جماع قلبك بتقاليد السيد، الذى يحتل على الأرض مكان الرب .. الذى هو وحده السيد والرب"!! ولم لا.. وقد خلت الساحة من منافس سياسى، بعد أن تحطمت الإمبراطورية على يد البابوات وإنه لمن سخرية الأقدار حقًا، أن يكون الأباطرة الألمان، الذين جعلوا الإصلاح الكنسى حقيقة واقعة، هم أكثر الناس خسرانًا من هذا الإصلاح لقد كانوا بحق كمن يحفرون قبورهم بأيديهم!!

الفصل الثانى

الفكر البابوى الصليبى

ماذا لو قلنا مباشرة ودون أية مقدمات، إن البابوية كانت السبب الرئيسى فى فشل كثير من الحملات الصليبية ؟! بل ما الذى سيكون عليه الأمر لو ذهبنا إلى حد القول إن البابوية سعت بكل ما وسعها الجهد إلى أن يكون الإخفاق حليف هذا العدد من تلك الحملات؟!

ولكـــن ماذا لو كنا أكثر دقة وأشد تثبيتا وقررنا من البداية دون تردد أن البابوية وقفت موقف المناوئ للحملات الصليبية مذ تحولت ريادة الحركة من يد الأمراء إلى يد الملـــوك، ولمـــا كان هذا التحويل قد حدث مع الحملة الثانية حتى السابعة – مع استثناء الرابعة، فإن هذا يعنى أن المناوأة بدأت مبكرا منذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى حـــتى آخـــر سنى النصف الأول من القرن الثالث عشر. ولم يكن هذا الموقف البابوى العدائـــى تجـــاه حملات الملوك، جامدا بلا حراك، بل كان ديناميكيا مؤثرا إلى حد بعيد جـــدا، اســـتخدم فيه الحبر الرومانى كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وكانت الأخـــيرة هى الغالبة، للقضاء على أى أمل فى النجاح قد يداعب ملكا من ملوك أوروبا، وحمل الصليب وخرج متجها إلى الشرق!!

وقـــد تكـــون الحملة السابعة – مع التحفظ – هى الاستثناء الوحيد فى العداء الـــبابوى تجاه حملات الملوك؛ ذلك أن لويس التاسع كان عند البابوية قديسا، خرج وفـــاء لـــنذر نذره، وإيمانا بكفرة "الحرب المقدسة" ضد أعداء المسيح، وهى اللافتة العريضـــة الـــتى علقـــتها الـــبابوية، وفعلت تحت ظلها الأفاعيل ضد المسلمين فى الشرق، بل والمسيحيين فى الغرب والذين كانت عذاباتهم بيد راعيهم، خليفة بطرس ثم نائب المسيح على الأرض، أشد وأنكى!!

وحـــتى لا يكـــون حديثــنا هذا ضربا من ضروب التنظير، أو دربا من دروب الجــدل العقــيم ومتاهاته، فمن الأجدى أن نرتد على آثارنا قصصا، لنجلو حقيقة الأمر، ونناقش الوقائع من مظانها الأصلية، ونرى إلى أى مدى تصدق هذه المقدمات.

ففــى الســابع والعشــرين من نوفمبر عام ١٠٩٥ ، وفى مدينة كليرمونت Clermont بجــنوب فرنســا، وفى الجلسة الأخيرة من جلسات المجمع الذى شهدته المديــنة علــى امــتداد تسعة أيام سلفت، وجه البابا أوربان الثانى Urban II الدعوة للجميع حاضرهم وغائبهم، كى يحملوا الصليب ويولوا وجوههم شطر الشرق لإنقاذ إخوانهم هناك من ويلات العذاب التى يتعرضون لها – بزعمه – واستخلاص القبر المقــدس مــن الانتهاكات التى لحقت به – فى تصوره – على يد المسلمين قال: "يا شعب الفرنجة، أنتم يا من تعيشون خلف جبال الألب، يا من اختاركم الرب وأحبكم مــن خلال أعمالكم الكثيرة، يا من تميزتم عن سائر الأمم بموقع أرضكم وعقيدتكم الكاثوليكــية والشــرف الــذى أوليــتموه للكنيسة .. إليكم نتوجه بخطابنا نستحثكم، ولــتعلموا أن دافعــا محــزنا جــاء بــنا إلى بلادكم .. إنها الحاجة إليكم وإلى كل المؤمنين"(١).

ويدخــل البابا بعد ذلك فى حديث طويل عن التعذيب والقمع والاضطهادات الوحشــية الــتى يتعرض لها – على حد قوله – المسيحيون الشرقيون، فى أسلوب يمــس شغاف قلوب سامعيه وينزع بهم إلى القتال، ثم يتساءل فجأة وهو يرمى إلى مــا وراء تساؤله ببعيد: "على من إذن تقع مهمة الانتقام من هذا، ومهمة الخلاص منه، إذا لم يكن على عاتقكم أنتم يا من اختاركم الرب دون سائر الأمم ليسبغ عليكم نعمــة المجد فى السلاح وجسارة القلب والبسطة فى الجسم، والقدرة على التحدى؟ لتكــن قصــص أســلافكم العظام حافزا لكم يحرك أرواحكم صوب القوة؛ فها هو شارلمان وابنه لويس وغيرهما من ملوككم وقد دمروا ممالك الوثنيين ومدوا حدود البــيعة المقدســة داخلها .. أيها الجنود يا من تتمتعون بالقوة وتنحدرون من صلب

---

(١) روايــة روبــير الراهــب عن مجمع كليرمونت، ترجمة قاسم عبده قاسم. الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، القاهرة بدون تاريخ، ص٧٧.

آبـــاء لا يشق لهم غبار، لا ترضوا لأنفسكم مظهرا أقل من أسلافكم، وتذكروا على الدوام قوتهم، وإذا كان حب الأطفال والوالدين والزوجات سوف يعوقكم، تذكروا ما يقولـــه سيدنا فى الإنجيل "من أحب أبا وأما أكثر منى فلا يستحقنى، ومن أحب ابنا أو ابـــنه أكـــثر مـــنى فلا يستحقنى" (متى ١٠/٢٧-٢٨) وكل من ترك بيته أو أباه أوأمه أو زوجه أو أطفال فى سبيل اسم المسيح سوف ينال قدرها مائة مرة وسوف يستحق الحياة الخالدة"[٢].

ثم يعرج إليهم حاملا بلسانه طبقا شهيا يسيل له لعاب السامعين الذين يعانون مـــن وطـــأة نظام اقطاعى قصم ظهور الأقنان، وأفسد سلام النبلاء بحروب أهلية طاحنة، ومغامرات تنافسية إقطاعية لانهاية لها، فشلت معها كل جهود "هدنة الرب" و"ســـلام الـــرب" ويعدهـــم البابا وعدا حسنا فيقول: ".. هذى الأرض التى يعيشون عليها يحوطها البحر من كل جانب، وتحفها سلاسل الجبال من كل ناحية، وتضيق بكـــثرتكم، وتشـــح بالثروة، ولا تكاد تغل من الطعام ما يكفى الزارعين، ولذا فأنتم تشـــنون الحـــروب ضـــد بعضكم بعضا، وتقتلون أنفسكم بأيديكم. الآن أوقفوا هذه الكراهية، وكفوا عن النزاع، وأطفئوا نيران الحرب بينكم وانطلقوا إلى طريق القبر المقـــدس لتنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس الذى يثير الرعب فى النفوس، ولتكن لكـــم الأرض خالصة من دونهم، فهى الأرض التى حدثنا عنها الكتاب المقدس بأنها تفيض باللبن والعسل"[٣].

ورجـــع الفضـــاء الصدى الناجم عن صيحات الجمع المحتشد وهو يصرخ "إنهـــا" إرادة الله" "والله يـــريدها" Deus Vult .. Deus Vult وسرت الدعوة مسرى النار فى الهشيم، وكأنما كان يتلهف المجتمع بأسره لسماع مثلها، الأمراء والفرسان والأقـــنان والـــزناة والخطـــاة، واللصوص والسفاكون، والمتهربون من الضرائب، والهـــاربون من الديون، والفارون من السجون .. المجتمع كله، عليته وحثالته، أو أضـــلاعه الثلاثة التى حدثنا عنها ألفرد العظيم Alfred the Great ملك انجلترا فى

---

(٢) نفسه، ص٧٨ – ٧٩.

(٣) نفسه.

القرن التاسع، ضلعه الذى يصلى .. رجال الاكليروس، وضلعه الذى يحكم الأمراء العلمانـيون، وضـلعه الذى يقوم بخدمة هذين الضلعين - الفلاحون الأقنان وتناول الشعراء الدعوة فتغنوا بها وترنموا:

ألا أيها المحبون العاشقون أفيقوا

ودعوا النوم .. وكفى

فالقبرة المغردة تردد أن النهار

قد جاء .. وصفا

وتشدو بأن السلام آت قريب

يعطيه الرب واسع المغفرة .. المجيب

لأولئك الذين فى حبه يحملون الصليب

يعانون الآلام بالحب .. وصبر عجيب(٤).

أمـا الملـوك فقـد وضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكبارا نيفا وخمسين سنة بعد الدعوة، إلى أن قرروا تلبية النداء بحمل الصـليب وعلى مسئوليتهم الخاصة، ووضعوا على كواهلهم عبء الحملات القادمة إلـى الشـرق ابتداء من الثانية فى أخريات النصف الأول من القرن الثانى عشر، حـتى السـابعة فى منتصف القرن الثالث عشر، باستثناء الحملة الرابعة التى كانت لها ظروفها الخاصة ونتائجها الخاصة أيضا وهذا الموقف الذى اتخذه ملوك أوروبا آنـذاك بـلا اسـتثناء، يثير كثيرا من علامات الاستفهام. أتراهم لم يكونوا يؤمنون بالفكـرة فى حد ذاتها؟ أم لم يكن لديهم امتناع بجدواها فى مواجهة عدو لم يكونوا علـى علم كامل بقوته العسكرية وتعبئة جيوشه؟ أم تراهم أدركوا المغزى الحقيقى

---

(4)"Vos qui ameis de Vraie amour" An Anonymous poet writes of the love of God expressed (by the Crusader (in Riley – Smith, The Crusades, Idea and reality, London, 1981, pp. 89-90).

الذى كانت تهدف إليه البابوية من دعوتها هذه، والهدف الكامن وراء عبارات البابا ودعايته الظاهرة؟ أم أن البابوية نفسها كانت راغبة عن اشتراكهم كارهة إياه لحاجة فى نفس رعيانها من أوربان الثانى فى آخر سنى القرن الحادى عشر حتى إنوسنت الرابع Innocent IV ocent IV فى القرن الثالث عشر الميلادى؟

ولعل التساؤل الأخير يجد إجابته مباشرة فى سلوك أوربان الثانى، الذى ما أن فرغ من دعوته العامة فى كليرمونت حتى عكف خلال الأشهر التالية التى استغرقتها الاستعدادات العامة لخروج الحملة الأولى باتجاه الشرق، يكاتب عددا من أمراء أوروبا من وراء ظهر ملوكهم، سادتهم الإقطاعيين! ويعقد المجامع الكنسية، ويبعث بقسيسيه إلى مناطق متفرقة من أوروبا - وإن كانت فرنسا مركز نشاطه - حاثا إياهم على دعوة الأمراء والنبلاء والفرسان على التضامن جميعا فى سبيل نجاح دعوته. وقد تضمنت رسائله جميعا النغمة التى عزف على أوتارها فى كليرمونت، والخاصة بويلات العذاب التى يلقاها إخوانهم مسيحيو الشرق، وانتهاك الحرمات فى الأراضى المقدسة.

ففى رسالة بعث بها إلى "كل المؤمنين فى الفلاندرز" فى ديسمبر ١٠٩٥، أى فى أعقاب مجمع كليرمونت يقول :".. لقد زرنا بلاد الغال (فرنسا) وحرضنا السادة والرعايا بحمية فى هذا الإقليم على تحرير الكنائس الشرقية .. وفرضنا عليهم التزامات بأن ينجزوا مثل هذا المشروع لمحو كافة خطاياهم، وعينا نائبا عنا قائدا لهذه الحملة، هو ابننا العزيز أديمار Adhemar أسقف لى بوى Le-Puy ومن ثم فإن كل من يقرر الذهاب فى هذه الرحلة فعليه أن يطيع أوامره كما لو كانت صادرة منا، كما يجب أن يخضع لسلطانه تماما فى الحل والعقد فى أية قرارات تتصل بعمله"(٥).

وواضح من هذه الرسالة أن البابا قد اختار قائدا روحيا للحملة فى الوقت نفسه هو أسقف لى بوى، ولم يعقد لواء الزعامة لأى من الأمراء الذين خرجوا

---

(٥) URBAN II, to all the faithful in flanders, December 1095 وراجع أيضا الترجمة العربية عند قاسم عبده قاسم، المرجع السابق ص٩.

بجيوشهم فى هذه الحملة مثل جوزفروى دى بوايون Gogfrey de Bouillon دوق اللوريـــن، وبوهيمند Bohemond النورمانى، وستفن كونت بلوا Stephen Count Blois، وريمونـــد Raymond الصـــنجيلى Sanit-Giles أمير تولوز Toulouse، وإن كان الأخير قد حظى بصحبة المندوب البابوى له مما أوحى بأنه من المقربين!

وفـــى التاســـع عشـــر مـــن سبتمبر عام ١٠٩٦ كتب إلى أتباعه فى بولونيا Bologna يقول ضمن إجراءات تنظيمية: "... علمنا أن كثيرين منكم قد استبد بهم الشوق للذهاب إلى أورشليم، وذلك شيء أثلج صدورنا، وليكن معلوما لديكم أن كل مـــن يمضـــى إلى هناك، لا من أجل مكاسب دنيوية، بل فى سبيل تحرير الكنيسة وخـــلاص أرواحهم، فإننا بمقتضى السلطة المخولة لنا وسلطة أساقفتنا الكبار وكل أساقفة الغال، بفضل رحمة الرب العظيم وصلوات الكنيسة الكاثولوليكية، نعفيهم من التكفـــير المفـــروض علـــيهم بسبب خطاياهم التى اعترفوا بها، وذلك لأنهم قدموا أموالهـــم وحـــياتهم فى حب الرب والجيران، أما الأساقفة والرهبان فلا يسمح لهم بالرحيل قبل الحصول على موافقة أساقفتهم ومقدمى أديرتهم، ويجب أن يوضع فى الاعتـــبار أن الشـــباب حديثى الزواج لا يفضل أن يقوموا برحلة طويلة كهذه دون موافقة أزواجهم، وليساعدكم الرب العظيم"[٦].

وبعد ثلاثة أسابيع من هذا التاريخ، أى فى السابع من أكتوبر ١٠٩٦، أرسل إلـــى جماعة دير "فالومبروسا" Vallombrosa يقول: "لقد نما إلى علمنا أن بعضا مـــنكم يـــريد الانطـــلاق مـــع الفرسان الذاهبين إلى أورشليم بنية خالصة لتحرير المســـيحية، وهذا النوع من التضحية الحقة، غير أنها جاءت من أفراد غير مؤهلين لذلـــك، فنحـــن نستنفر أفئدة الفرسان للقيام بهذه الحملة لأنهم هم القادرون على كبح جمـــاح المســـلمين بأسلحتهم، وإعادة الحرية للمسيحيين ونحن لا نريد لأولئك الذين هجـــروا دنيا الناس، ونذروا أنفسهم لجهاد الروح، أن يحملوا السلاح أو يذهبوا فى هذه الحملة"[٧].

---

(٦) URBAN II, to his Partisans in Bologna 19 September 1096- ، وراجـــع الـــترجمة العربية عند قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص٩١ .

(7) URBAN II, to the religious of the Congregation of Vallombrosa 7 October 1096 وراجع الترجمة العربية عند، قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص٩٢.

واضح تماما من هذه الرسائل التى جئنا على طرف منها هنا، وتلك التى أوردتها المصادر ولم نذكرها، ومن خطاب أوربان الثانى فى كليرمونت، أن البابوية قد وضعت نفسها من البداية فى موضع الزعامة الروحية والسياسية للحركة الصليبية، أما الأولى فلا سبيل إلى الشك فيها أو النيل منها، وأما الثانية - وقد خاطبت البابوية الفرسان دون الملوك - فكانت تعنى صراحة إعلان الحرب على السلطة الزمنية فى أوروبا ودون مواربة. فالأمراء يدينون بولائهم السياسى - ولو من الناحية النظرية فقط، لملوكهم باعتبارهم أفصالهم الإقطاعيين، وقد أقسموا لهم بمقتضى أعراف النظام الإقطاعى السائد يمين الولاء والتبعية، وهو اليمين الذى حاج به زعماء الحملة الأولى الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومننوس Alexius Comnenos وهم مثول فى حضرته قبل عبورهم البسفور فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة. ورغم أن الأمراء وملوكهم يدينون بالتبعية الروحية للبابوية، إلا أن مخاطبتهم من وراء ظهور سادتهم الإقطاعيين، حتى ولو كان من جانب خليفة القديس بطرس الآن، ونائب المسيح Vicarius Christi من بعد، يعد اعتداء على حقوق السيادة الزمنية، وانتهاكا لفرضيات النظام الإقطاعى الباسط كفيه على أوروبا آنذاك، والقاضية "برابطة تعاقدية تحت زعامة الملك باعتباره ممثلا لقمة الهرم الإقطاعى"(٨)، رغم أن هذه "القمة" كانت طيلة العصر الوسيط تمثل المكانة وتخلو من السلطة!!

ولما كانت البابوية تدرك ذلك تماما، فقد سعت حثيثا لتضع نفسها هى الأخرى فى مصاف الملوك الإقطاعيين، وسعت فى هذا السبيل خطوها حتى أمسى البابا بدوره سيدا إقطاعيا تفوق سلطته الإقطاعية سلطة الملوك، وبدا هذا الاتجاه واضحا حتى قبل أن تتسع الهوة بين البابوية والسلطة الزمنية ممثلة فى الإمبراطورية. ففى عام ١٠٧٣ كتب جريجورى السابع Gregory VII فى أول عهده بالعرش البابوى، رسالة "إلى كل الأمراء الراغبين فى الذهاب إلى إسبانيا"(٩)

---

(٨) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جزءان القاهرة ١٩٨٣، الجزء الثانى ١٩٨٦ ص ٢٧٣؛ محمد كامل ليلة، النظم السياسية، القاهرة ١٩٦٣، ص٤٢٢.

(9) GREGORY VII, to Princes wishing to reconquest Spain, 1073

جـاء فـيها: "هـا هو كونت إفولوس Evolus صاحب روشيو Roceio وصاحب الشـهرة الفائقـة، رغب فى مهاجمة تلك الأراضى لاستخلاصها من أيدى الوثنيين (يعنى المسلمين فى الأندلس)، ومن ثم أعطيناه الحق فى امتلاك كل الأراضى التى يستردها بنفسه أو بمساعدة حلفائه، وكان ذلك بموافقاتنا نحن ممثلى القديس بطرس، فـإذا حذوتم حذوه وسعيتم سعيه، كان سعيكم مشكورا، أما إذا فكر أحدكم أو خطط لمهاجمة تلك الأراضى منفردا أو لحسابه الخاص .. فليكن معلوما لديكم جميعا أنه من الخطأ البين أن تغضبوا القديس بطرس باستيلائكم لحسابكم على تلك الأراضى، فتمسون بذلك شأن الوثنيين" .

وإذا كـان جـريجورى السابع قد استفتح ولاية عهده البابوى بتأكيد سيادته الإقطاعـية تجاه الأمراء، فإنه ثنى ذلك فى العام التالى (١٠٧٤) بدعم هذا الادعاء إزاء الملـوك؛ فقـد كتب إلى "سولومون" Solomon ملك المجر[١٠] يقول فى لهجة متغطرسة تنم عن شخصيته" .. تستطيع أن تقف من أمرائك على أن مملكة المجر ترتـبط بالكنيسـة الرومانـية المقدسة، وهذا يستتبع بالضرورة خضوعها وتبعيتها للقديس بطرس .. غير أنه نما إلى علمنا أنك وافقت على قبول المملكة كإقطاع من الملك الألمانى (لم يكن هنرى الرابع قد توج حتى ذلك الحين إمبراطورا)، وهذا يعد انـتهاكا لحقوق القديس بطرس، وهو سلوك لا يتفق وأخلاق الملوك وفضائلهم. فإن أردت أن تـنال بـركة القديـس بطرس ورضانا، فعليك أن تبادر إلى إصلاح هذه الخطايـا الـتى أثمتها يداك، ولا شك أنك تعلم جيدا أنه ليس لك أمل فى أن تحظى بالعدالة، أو تضمن لنفسك على عرشك عمرا مديدا، إلا إذا تلقيت صولجان سلطانك من يد البابا وليس من الملك. ولما كان الله قد منحنا القوة، فإننا لن نسمح أبدا تحت أى تهديد أو خوف أو اعتبارات شخصية بتدنيس مجد وكرامة من نحن على خدمته قـائمون. وإذا أردت أن تصوب خطى مسارك وأن تسلك سلوك الملوك، فعليك أن تكتسب محبة الأم .. الكنيسة الرومانية المقدسة .. وصداقتنا فى المسيح".

(10) GREGORY VII, to solomon King of Hungary 1074

والرســـالة بكــل ما فيها من عجرفة دالة على ملامح العصر الجريجورى، تنبـــئ عن المكانة الإقطاعية التى عملت البابوية على تحقيقها، حتى تطاول الملوك مكانـــتهم فى حربها معهم، مضافا إليها مكانتها الروحية التى تدل على الجميع. وقد يـــدور بخلـــد بعـــض أن جريجورى فعل ذلك ضمن برنامجه الإصلاحى، وأنه لا علاقـــة لـــه بالفكرة الصليبية لدى البابوية، وأن هذه الرسائل وأشباهها سابقة على مجمـــع كليرمونت. غير أن الحقيقة التاريخية توقفنا على أن الفكر الصليبى البابوى قـــد قر فى ذهن جريجورى قبل أوربان الثانى بعشرين سنة كاملة، وأن الاتجاه إلى الشـــرق فـــى حملة صليبية كان من بنات أفكار جريجورى السابع نفسه؛ ففى عام ١٠٧٤ وجـــه نداء عاما "إلى الراغبين فى الدفاع عن الإيمان المسيحى"(١١) افتتحها بالحديـــث عـــن الولايـــات التى حلت بالمسيحيين فى الشرق، والاضطهادات التى تعرضـــوا لهـــا علـــى يـــد المســـلمين، ومـــا تعانـــيه الإمبراطورية فى الشرق، والاضـــطهادات التى تعرضوا لها على يد المسلمين، وما تعانيه الإمبراطورية فى الشـــرق مـــن خطـــر داهـــم من جانبهم، وهذا هو بعينه ما قاله أوربان الثانى فى كليرمونت، وصدر بها رسائله التى أوردناها من قبل.

وبعد هذا الحديث الذى يفيض حسرة وأسى، يوجه جريجورى السابع الدعوة لحملـــة صـــليبية لإنقاذ مسيحى الشرق. يقول "نحن نثق فى رحمة الله. كما نثق فى قدرتـــه وســـوف نبذل كل ما فى وسعنا لعمل الاستعدادات اللازمة لتقديم يد العون للإمـــبراطورية المســـيحية (يعنى البيزنطية) فى أسرع وقت ممكن، ومن ثم فنحن نناشـــدكم بالإيمان الذى ألف بينكم فى المسيح، وسلطة القديس بطرس أمير الرسل أن تـــتحركوا بكـــل الحـــنو إزاء جرحات ودماء إخوانكم ... لإنقاذهم مما يعانون، ولتـــتحملوا الصعاب مهما كانت من أجلهم، ونبئونى بما سيهديكم الله إلى عمله فى هذا السبيل"(١٢).

---

(11) GREGORY VII, calls for a Crusade, 1074

(١٢) Setton (K.), A history of the Crusades, وراجع أيضا Id.1989, Vol. I, pp. 222-223
Six Vols, Philadelphia, 1955.

كانت هذه الرسالة فى الأول من مارس عام ١٠٧٤، وما أن وافى شهر سبتمبر من العام نفسه، حتى بعث برسالة إلى وليم السابع دوق أكويتين Aquitaine وكونت بواتو Poitou جاء فيها أن التقارير تفيد بهدوء الأحوال فى الشرق، وأن المسيحيين هناك بدأوا يستردون ثقتهم فى أنفسهم ثانية،(١٣) وأن علينا التريث حتى نرى ما يطالعنا به المستقبل(١٤) . ولم تكد تمضى على ذلك أشهر ثلاثة، حتى كتب إلى هنرى الرابع Henry IV ملك ألمانيا فى الأيام الأخيرة لعام ١٠٧٤ يقول: "أود أن ألفت انتباهكم إلى أن المسيحيين فيما وراء البحار يعانون من اضطهاد وذبح المسلمين لهم كما تذبح الشياه، وأنهم كتبوا إلى مستجيرين .. وليكن معلوما لديك أن هناك خمسين ألف رجل على أتم استعداد للقتال تحت قيادتى كما أنى أقترح بعد أن ينفذوا مهمتهم أن يواصلوا تقدمهم حتى قبر المسيح"(١٥). ولعل هذا ما دعا المؤرخين Edgar H. McNeal, Oliver J. Thatcher إلى الاعتقاد بأن ما حدث فى عام ١٠٩٥ لم يكن يختلف كثيرا عما دعى إليه فى سنة ١٠٧٤، وأن البابا أوربان الثانى عندما وجه الدعوة للحملة الصليبية فى كليرمونت، لم يكن فكره يحتوى على شئ أكثر مما اشتمل عليه فكر جريجورى السابع الذى كشفت عنه رسائله هذه(١٦). وإذا كان جريجورى السابع لم يستطع أن يمضى فى تنفيذ برنامجه الصليبى إلى حيث يبتغى، نتيجة للصراع الذى نشب على الفور بينه وبين هنرى الرابع مستترا برداء التقليد العلمانى، فإنه يعد بلا شك صاحب اللبنة الأولى فى بناء صرح الحركة الصليبية، والتى تعهدها أوربان الثانى من

(١٣) لعل جريجورى يشير هنا إلى التحالف المؤقت الذى جرى فى منتصف عام ١٠٧٤بين الإمبراطورية البيزنطية وبعض زعماء السلاجقة، مثل أرتق وسليمان بن قطلمش. للقضاء على الحركة التى قام بها "روسل باليل" Roussel of Bailleul لإقامة دولة نورمانية مستقلة عن الإمبراطورية فى آسيا الصغرى، وأدى هذا التحالف المؤقت إلى هدوء الأمور نسبيا فى المنطقة بين البيزنطيين والسلاجقة. راجع، أسد رستم، الروم، جزءان، بيروت ١٩٥٦ الجزء الثانى، ص١١٢-١١٣؛ سيد أحمد على الناصرى، الروم، القاهرة ١٩٩٣، ص٣٧٩-٣٨١؛ عبد الغنى محمود عبد العاطى، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور الكسيوس كومننوس، القاهرة ١٩٨٣، ص٨٢ – ٨٧.

(14) Setton, Crusades, Vol. I,p. 223

(15) Ibid. p.224

(16) Thatcher (O.) & McNeal (E.), A Source book of Mediaeval History, New Youk, p.512

بعـــده وبالرعاية الكاملة حتى ليعد بحق هو صاحب الجانب العملي التطبيقى منها دون شك، ودون أن ينازعه فى ذلك أحد.

واســتكمالا لمشروعه وجه جريجورى السابع فى السادس عشر من ديسمبر ١٠٧٤ دعــوة عامة للمؤمنين عبر الألب للمشاركة فى حملته المقترحة،وكتب إلى حليفــته الكونتيســة ماتــيلدا Matilda أميرة تسكانيا Tuscany يدعوها مصاحبة المبراطورة الأم "آجنى" Agnes التى من المتوقع ذهابها إلى الشرق مع الذاهبين- وضــمن رســالته إلـــى هنرى الرابع التى تحدثنا عنها توا - طلبا بأن يقوم الملك الألمانى بحماية الكنيسة الرومانية المقدسة ومباشرة شئونها ويوصيه بها خيرا أثناء غــيابه فى الشرق قائدا للحملة؛ ويعتبر "فردريك دونكالف Frederic Duncalf"[١٧] ما أقدم عليه جريجورى السابع فى وصيته هذه لهنرى الرابع "نوعا من السذاجة" . بينما لانرى فيها إلانوعا من خبث "شيطان مقدس" على حد وصف بطرس الدميانى لـــه[١٨]. فهوقــد جعــل من نفسه داعية لحملة صليبية تتجه إلى الشرق بهدف انقاذ المســيحيين الشــرقيين فـــى الإمبراطورية البيزنطية، الذين كان هو نفسه يعتبرهم "خارجيــن عــن عقيدة الكنيسة الجامعة"[١٩] ونصب نفسه قائدا عسكريا للحملة إلى جانـــب كونـــه زعيما روحيا. فكأنه بذلك اختص شخصه بجانب من سلطة الملوك، الحكـــام الزمنيين، والإيحاء إلى هنرى برعاية شئون الكنيسة الرومانية فى غيابه، يجعــل من هنرى نائبا عنه، أو يعتبر أشد تحديدا، فصلا إقطاعيا تابعا له، وهذا هو جانـــب "الخبث" فى "الشيطان المقدس" وليس "نوعا من السذاجة" يؤكد قولنا هذا ما يذهـــب إلـــيه "أولمـــان"[٢٠] Ullman من أن هذه الحملة المقترحة لجريجورى كان صـــاحبها يرمى بها من طرف خفى إلى هدف سياسى آخر، وهو أنه كان يأمل من مجـــرد إشـــاعة أن هـــناك خمســـين ألف مقاتل رهن إشارته، وإظهار هذه القوة

(17) The Councils of Piacenza and Clermont (in Setton, Ahistory of the Crusaades, Vol. I,p.224).

(18) Tierney (B.), The Crisis of Church and State 1050-1300, U.S.A. 1964, p.46

(19) Setton, Crusades. I,p.224.

(20) Ullmann (W.), A Short history of the Papacy in the Middle Ages, London, 1974, pp.150.

العسكرية المزعومة، أن تخف أو تتوقف حدة هجمات النورمان غير المستقرين فى جنوب إيطاليا على الممتلكات البابوية.

وتدعم مجريات الأحداث ما ذكرناه، ففى الثانى والعشرين من يناير ١٠٧٥، وبعد أقل من شهر من رسالته إلى هنرى، كتب إلى هيو Hugh مقدم دير كلونى ورئيسه السابق، عندما كان راهبا يحمل اسم "هيلد براند" Hildebrand رسالة لم يعرج فيها بشىء أبدا على حملة عسكرية ينوى قيادتها لمساعدة البيزنطيين. وإن كان قد أظهر فى الوقت نفسه تبرمه "لانسلاخهم عن حظيرة الإيمان الكاثوليكى"(٢١). وفى العام نفسه بدأت أولى حلقات الصراع بينه وبين السلطة الزمنية فى أوروبا عامة وألمانيا خاصة، عندما أعلن صراحة عن برنامجه الإصلاحى بمحاربة "السيمونية"، أى بيع الوظائف الكنسية، وعدم التعامل مع رجال الدين المتزوجين، ثم أعلن رفضه التام للتقليد العلمانى، مما نكأ جرحا لم يندمل بين البابوية والملوك حتى نهاية العصور الوسطى، وتحول بعد حين يسير من بدايته إلى نزيف مستمر بين القوتين حول السيادة العالمية(٢٢).

ومما يوضح بجلاء نيات جريجورى السابع فى صليبية من نوع خاص إزاء السلطة الزمنية، أنه ما إن بدأ الصراع مع هنرى، حتى نحى جانبا السعى لكسب أى صداقة مع بلاط القسطنطينية، بل على العكس قلب لها ظهر المجن تماما، فبارك الغزو النورمانى للأراضى الإمبراطورية فى شبه جزيرة البلقان، فى محاولة لصرف انتباههم بعيدا عن ممتلكات البابوية فى إيطاليا. وأصدر قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور "نقفور الثالث بوتنياتس Nicephorus III Botaniates تحت دعوى أنه عزل صديقه ميخائيل السابع سنة ١٠٧٨ وشجع روبرت جويسكارد Robert Guiscard النورمانى عندما أعلن عزمه على إعادة ميخائيل إلى عرشه(٢٣). وأنعم على أمير زيتا Zeta، إحدى دويلات البلقان الدائرة

---

(21) Setton, Crusades, I,p. 224

(٢٢) لمزيد من التفصيلات عن هذا الصراع، راجع الفصل الأول.

(23) Setton, Crusades, I,p.224 وأيضا Runciman, (S.), A history of the Crusades, 3 vols. London 1965, vol, I, pp. 69,99

فـــى فلـــك الإمـــبراطورية البيزنطية، بالتاج هبة منه ليجذبه إلى صف الكاثوليكية، ضـــاربا هـــو والأمـــير عـــرض الحائط بالإدعاءات البيزنطية. ومع أن الكسيوس كومـــنزس، فـــى محاولـــة منه لإزالة الخلاف بين القسطنطينية وروما، جدد رغبة ميخائيل السابع فى الاستعانة بجند مرتزقة من الغرب الأوروبى، إلا أنه لم يجد من جريجورى آذانا صاغية، فأقدم كرد فعل لغيظه على إغلاق الكنائس الكاثوليكية فى العاصـــمة الإمـــبراطورية، وراح أهلوهـــا يـــنظرون إلى البابا الرومانى باعتباره متواطـــئا مـــع النورمان، وأطلقت النكات الساخرة فى المدينة محدثة باستهزاء عن غطرسة جريجورى وعجرفته(٢٤).

هـــذه الفعـــال التى مارسها جريجورى السابع لا يمكن أن تنسب مطلقا إلى زعيم روحى، بقدر ما ترتبط ارتباطا وثيقا بملك اقطاعى يمارس كل شئون السلطة الزمنـــية، أو على حد تعبير "ستيفن رنسيمان(٢٥)" Steven Runciman فإن البابوية أمسكت دفة الحرب "المقدسة" – فى عرفها – وراحت توجهها كيف تشاء، فهى التى تدعو إلى هذه الحرب وتطلقها وتعين قادتها، أما الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها فهـــى تحت الحماية الكاملة والسيادة البابوية. ومن هنا لم نكن مبالغين عندما ذكرنا مـــن قبل، إن دعوة أوربان الثانى فى كليرمونت، ورسائله العديدة التى وجهها إلى الأمـــراء، هـــى والدعوة العامة للأمراء دون الملوك، بمثابة إعلان لحرب صليبية تـــدور رحاها فى أوروبا بين السلطة الزمنية ممثلة فى الملوك والإمبراطورية من ناحية، والسلطة الروحية الزمنية مجتمعة فى البابوية!

لـــم يكـــن غريبا إذن أن يطلق جريجورى السابع فكرة القيام بحملة صليبية لانقـــاذ مســـيحى الشـــرق طلاقا بائنا لا رجعة فيه، وأن يوجه كل جهده الآن لشن حرب صليبية أخرى فى الغرب الأوروبى ضد الحكام العلمانيين وأصحاب السلطة الزمنـــية من الملوك، طيلة عشر سنوات تالية (١٠٧١–١٠٨٥)، ولم يقلع عنها إلا

---

(24) ANNA COMNENA, The Alexiad, translated from the Greek by E.R.A. Sewter Penguin book 1969, pp.61-65

(25) Crusades, I,P. 92

عـندما جاءته رسل الموت تتوفاه، بحكم الارتباط الحتمى القائم بين ألمانيا وإيطاليا، باعتبار الملك الألمانى هو الإمبراطور الرومانى الذى يتلقى التاج من البابوية.

وبغض النظر عن قرار الحرمان الذى أصدره جريجورى السابع ضد هنرى الرابع فى فبراير ١٠٧٦، والذى قاد إلى الإذلال الشهير للملك الألمانى فى كانوسا، وراح يضرب به المثل، فإن القرارات والمراسيم البابوية الصادرة عن جريجورى السابع تباعا، حتى قبل صدور قرار الحرمان هذا، كانت تعنى فى جوهرها إعلان الحـرب صراحة ضد السلطة الزمنية وممثليها فقد كان من بين ماتضمنته أن للبابا وحـده الحق فى أن يقبل الأمراء منه القدم وكان هذا يعنى أمرين : أحدهما أنه لن يـنال هـذا الشرف إلا أصحاب الحظوة الذين سوف يسمح لهم البابا بذلك من قبيل التـبرك. والآخـر أن البابا بذلك يوجه ولاء الأمراء له دون الملك، وهذا هو بيت القصـيد. ومن ثم كان لابد أن يتبع هذا المرسوم بآخر يعد تتمة طبيعية له ومقدمة لما هو آت يقول فيه: "من حق البابا عزل الأباطرة"، ثم يعلن الحرب صراحة على كـل مخالفـيه تحت دعوى ماقدم به مراسيمه من أن الكنيسة الكاثوليكية لم تخطئ طـيلة ما مضى من عمرها ولن تخطئ فيما بقى لها من عمر، "ليس بكاثوليكى كل مـن يخـالف الكنيسـة الرومانية، ولن ينعم بالسلام" وكان هذا التحول من حرب صـليبية باتجاه الشرق يقودها بنفسه، إلى حرب صليبية أخرى فى الغرب يحركها ويؤجـج نـيرانها بقداسـته ضد الملوك، هى الركيزة الأساسية التى استندت عليها البابوية فى سياستها الآتية، واستغلتها استغلالا كاملا لتحقيق أغراضها الأساسية فى الشرق والغرب على السواء.

لقـد كانت دعوة الأمراء وحدهم للقيام بهذه المهمة، تعنى بتعبير دقيق سحب البساط من تحت أقدام الملوك وتجريدهم من أهم دعامتين تعتمد عليهما عروشهم .. أعنى المال والجنود فالملك - فى ظل النظام الإقطاعى - لم يكن يعدو فى كثير من الأحيان "الأول بين أقرانه" Primus inter Pares يمتلك مساحات من الأرض، ربما تزيد ممتلكات بعض أفصاله عنها أحيانا، ويعتمد فى دخل خزانته على ما يقدمه له أمـراؤه فـى مناسـبات بعينها، دون أن يأخذ فى شكله صفة الضريبة، بل معنى

بعد الكشف عن الفضيحة مونيكا مع المتحدثة باسمها

كاثلين ويلى هى الأخرى
اتهمت كلينتون بالتحرش بها.

باولا جونز فتحت بوابة جهنم
على الرئيس

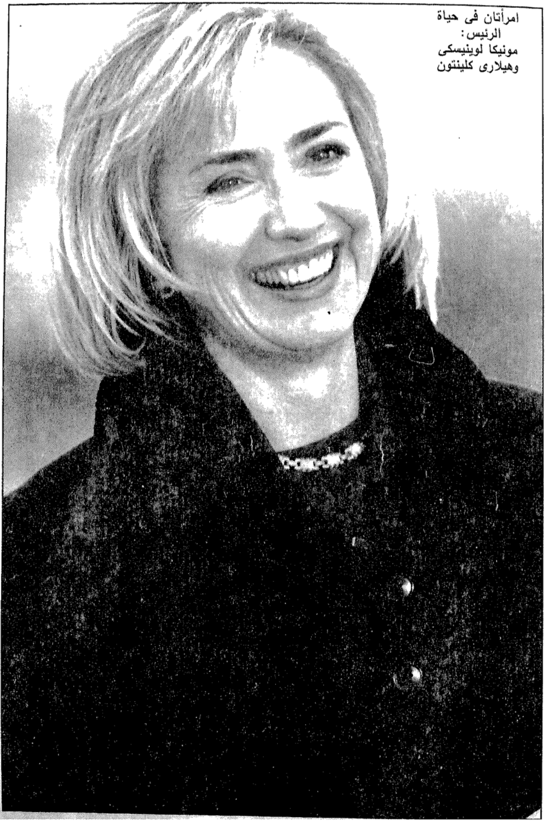

امرأتان فى حياة
الرئيس :
مونيكا لوينيسكى
وهيلارى كلينتون

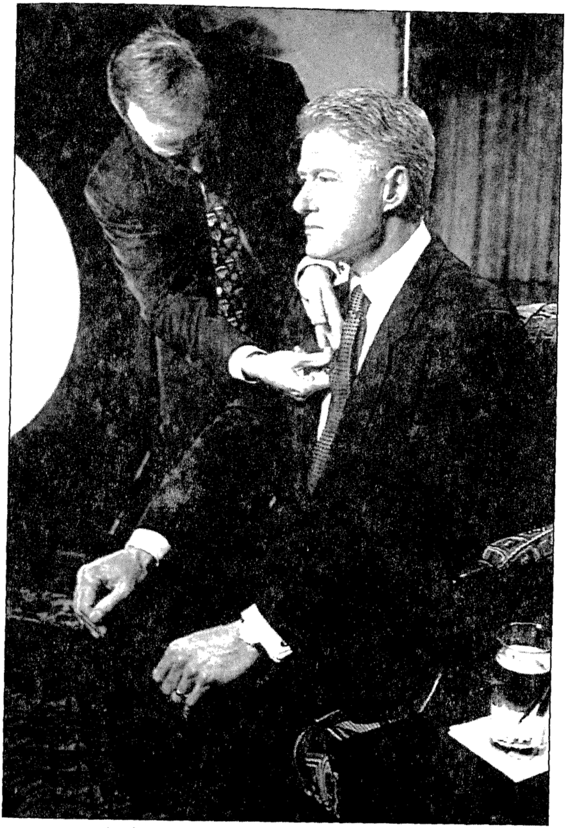

اعداد الرئيس قبل دقائق من ظهوره على شاشات التليفزيون ليعتذر للشعب

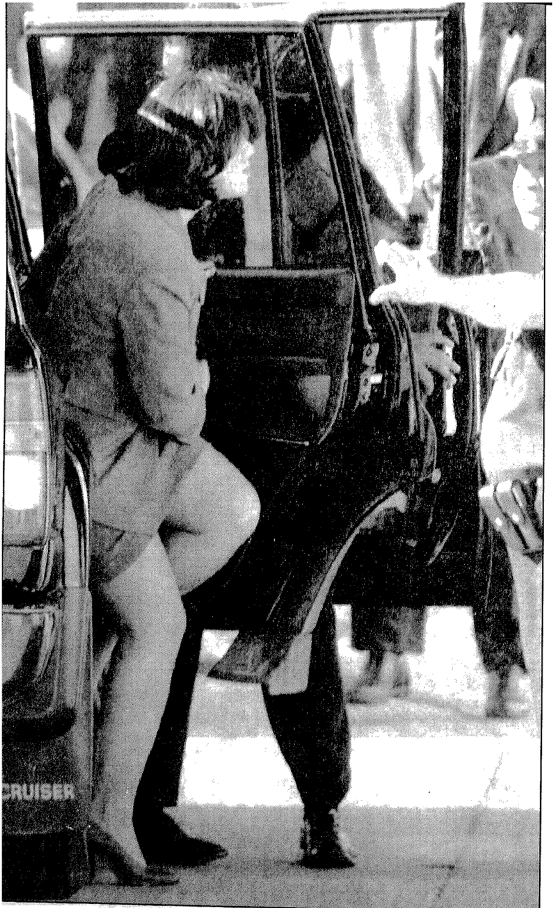

مونيكا فى طريقها للشهادة

كلينتون يعترف بالخطيئة أمام القيادات الدينية

مونيكا تحمل الفستان
الأزرق دليل الادانة

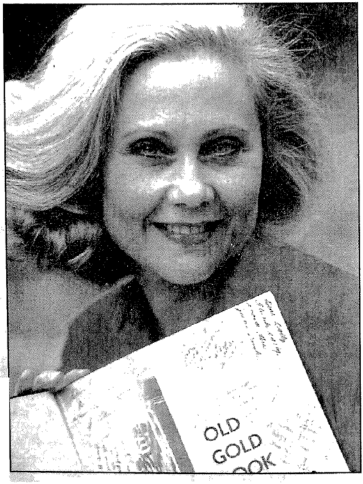

دوللى كيل براوننج سجلت
علاقتها الغرامية بالرئيس
فى كتاب ووصفته بقولها
«مراهق كبير»

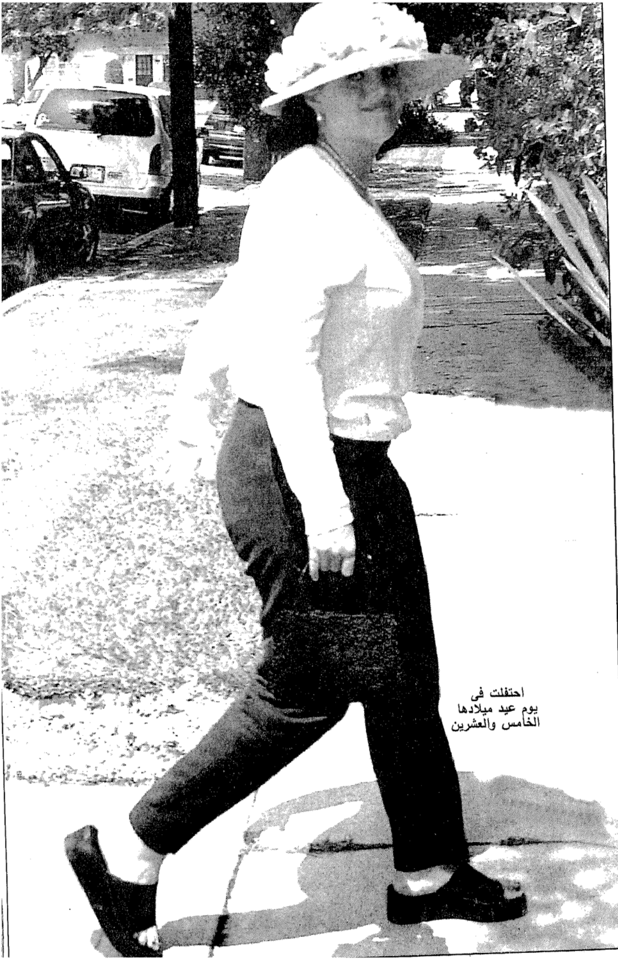

احتفلت فى
يوم عيد ميلادها
الخامس والعشرين

هل تستمر مساندة هيلارى لزوجها زعيم الخيانة

رقم الإيداع : ٩٨/١١٣١٣٢
الترقيم الدولى : 977-07-065-9

دار الهلال

هذا الكتاب

●● فى هذا الكتاب النص الكامل والحرفى لتقرير المحقق المستقل كنيث ستار حول فضحية العصر والذى يتناول التفاصيل الدقيقة لعلاقة الرئيس كلينتون ومونيكا لوينيسكي.

وقد أجمع رجال الصحافة وخبراء القانون الأمريكيين ورجال الكونجرس على وصف التقرير بأنه أخطر تقرير قضائى فى هذا القرن.

ولا تنبع خطورة التقرير من الوقائع المذهلة للعلاقات الجنسية بين كلينتون ومونيكا أو الجهد المبذول فى اعداده أو طبيعة الشخصيات التى يتناولها، وانما تنبع من أهم حقيقة فيه وهى أنه يوجه ١١ اتهاماً للرئيس الأمريكى شملت الحنث باليمين وإعاقة العدالة وإساءة استغلال سلطاته ومحاولة التأثير على الشهود، وقد تؤدى فى نهاية الأمر إما إلى استقالته أو الاكتفاء بتوبيخه أو اتهامه بخيانة الأمانة تمهيداً لعزله عن منصبه.. مما يجعل مستقبل كلينتون فى مهب الريح.

هذا التقرير جاء فى ٤٤٥ صفحة واشترك فيه ٤٠ محققاً قاموا باستجواب ٤٠٠ شاهد وتكلف ٤٠ مليون دولار.

زار مواقع التقرير على شبكة انترنت للمعلومات ١٠٠ مليون انسان فى العالم.

التقرير أحدث زلزالاً فى الحزبين الكبيرين فى الولايات المتحدة ووضع الأمة الامريكية فى حيرة من أمر الرئيس، كما تسبب فى هزة فى أنحاء العالم وأسواقه المالية.

ولأن التقرير يمثل وثيقة مهمة برغم ما يحتوى من وقائع وعبارات تخدش الذوق العام، فقد حاولنا جهدنا أن نصيغ هذه الأجزاء بصورة لا تغير الحقائق أو تغلفها ولكنها لا تجرح الحياء لأننا نؤمن بحق القارئ فى المعرفة.

●● صدرت كتب كثيرة عن فضيحة مونيكا وكلينتون وستصدر كتب أخرى كثيرة.. ولكن النص الحرفى والكامل لتقرير المدعى الأمريكى لايوجد سوى فى هذا الكتاب!

الثمن

١٠ جنيه

Bibliotheca Alexandrina
0237941